
سنابك النار
ثلاثية قصصية بدوية أسطورية
م. سارة أحمد
إبهار
للنشر والتوزيع

الأسطورة الأولى

سر مليحة

في قلب الصحراء وتحت أشعة الشمس الحارقة، تقع خيمة بسيطة بعيدة عن صخب المدينة وضوضاء الحياة الحضرية، وسط الرمال الذهبية والصخور الكبيرة، وُلِدَ سِرٌ كبير لامرأة شجاعة حوّلت حياتها القاسية إلى جنة وافرة مليئة بالحب

ولكن...

من هنا تبدأ حكايتها:

منذ ساعات الفجر الأولى، تعوّدت مليحة على الاستيقاظ للقيام بروتينها الشاق الذي ألفته لأكثر من ثلاثة عقود، فهي تنهض من الفراش مشدودة الظهر بقوامها الممشوق الشامق، تغسل وجهها من جرة الماء الأرجوانية ذات المياه الباردة، ثم تجلس أمام المرآة وتلتقط مكحلتها النحاسية المزينة برسومات نحتية رائعة محفورة بأحرف عربية قديمة من الصعب فهمها فهي أشبه ما تكون بالطلاسم، وتحمل بعضاً من العلامات والشروخ الصغيرة تدل على قِدمها؛ لتخُطَّ عينيها الواسعتين بشطآن من السواد، ثم تُلَمْلِم شعرها الأسود الطويل والمضفّر وتغطيه بحجاب أسود طويل، ثم تخرج من خيمتها متوجهة إلى الحظيرة حيث ماشيتها، فتختار الحلوب منها، وتدر منها الحليب بروية ولطف، وبعد أن يمتلئ الوعاء ترشف بعضاً منه شاكرة الله على ما أسبغ عليها من نعمه.

ثم تُرجع العنزة إلى مكانها وتضع لها وللقطيع بعض التبن والماء، وتتوجه لإعداد طعام الفَطور، فتطحن البر بالرَحى، ثم تعجنه بالماء، وتوقد النار على صينية الصاج حتى تسخُن، ثم تضع الخبز عليه وتُدَنْدِن مستمتعة

برائحة الأرغفة الشّهية ونسيم الهواء العليل، بينما يتسلّل شعاع الشّمس المشرقة شيئاً فشيئاً إلى الموقد فيلامس إبريق الشاي، بعدها تُفتّت الخبز وتمزجه بعجوة التمر وعليه بعض الحليب والسمن، وحين تنتهي من تجهيز الفَطور والشّاي، توقظ زوجها السّتيني ضاري الذي رافقته منذ ثلاثين سنة، لكنّ تجاعيد الشّقاء طبعت أثرها على وجهه وجبينه، ولم ترحم شعره وأسنانه التي تفرّقت ولم يبق سوى بضع أسنان بالكاد تعينه على المضغ، لكنه يرقع قلبه بالتأمل في جمال زوجته المرهفة ذات الصوت الناعم، والثّغر الباسم.

وبعد أن يتصبح ضاري برفقة زوجته ينهض ويأخذ حقيبة الزّاد معه، ثم يُطلِق الغنم والماعز ويبتعد للرّعي، بينما تقوم مليحة بأعمال المنزل من ترتيبه وتنظيفه بتلك المقشّة المصنوعة من ليف النّخل، ثم تبدأ عملها الذي اختارته لتعاون به زوجها بسبب ضيق ذات اليد وشظف العيش، وهو أن تصنع كحل الإثمد، فتجلس في زاوية من خيمتها، وتلتقط حجارة الإثمد الفضية اللّامعة وتضع نواة التمر المحمّص بجوارهما، فتدقهما معاً بحصاة ملساء حتى يصبح مسحوقاً تمزجه ببعضه، وتُصَفِّيه بقماش جاف لتصطفي المسحوق الناعم، وفي النهاية تضعه في مكاحل نحاسية متواضعة أفضل حالاً من مكحلتها العتيقة.

وحين تنتهي من تجهيز بضاعتها تضعه في صندوقها الخشبي المتواضع الذي تجمع فيه أغراضها الثمينة، وتخرج بأتانها لجمع الحطب وجلب الماء من المورد القريب منهم، ثم ترجع وقد أنهكها التّعب فتأخذ قيلولة قصيرة؛ لتجدّد بها نشاطها وتستعد لاستقبال البائع الجوّال على حماره الذي اعتاد المرور قرب خيمتها مرة كل أسبوعين، فتشتري منه ما يلزم بمقايضته بما حضرته وجهّزته من بضاعة مقابل البر وبعض الحاجيات، وعند العصر تُحضّر نفسها بغسل وجهها وإطلاق شعرها، ووضع الكحل على عينيها، ثم

تمضغ قطعة من الديرم حتى تصبح رطبة فتصبغ بها شفتيها المكتسبتين للون الأحمر وأخيراً تُبخّر المنزل بالقيصوم العطري؛ استعداداً لاستقبال زوجها الذي يعود إليها عند المغرب، فتُحسن استقباله وتُعِدُّ العشاء له، ثم يتسامران تحت النجوم حتى يُغالبهما النعاس فيخلدا للنوم استعداداً لليوم الجديد.

مضت حياتهما اليسيرة على خير حال لسنوات عديدة، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي زارتهما فيه شقيقة ضاري الكبرى وتدعى نَفْساء، وقد تجاوزت السبعين بقليل، وبالرغم من سنها هذا إلا أنها كانت امرأة قوية، طويلة القامة، ذات صدر كبير، وسمنة مفرطة، وقد خدّدت التجاعيد وجهها، لها عينان ماكرتان لا تخلوان من الحِدّة، صوتها أجش، تغطي رأسها بقطعة قماشية خشنة تخفي بها وجهها القبيح وقسماتها المتجهّمة، وترتدي عباءة سوداء واسعة.

أحسنت مليحة وزوجها ضاري ضيافتها، رغم قِلّة زيارتها لهما، فهي بالكاد تزورهما مع زوجها مرة كل سنتين على الأكثر، ولكنها جاءت هذه المرة بجميع متاعها ورحالها دون زوجها، وأثناء حوارها مع شقيقها ضاري وزوجته أبلغتهما بأنها قد ترمّلت منذ مدّة وقرّرت العودة والسّكن معهما.

واستها مليحة في مصابها، ثم هلّلت ورحّبت بها، وعكفت على تحضير خيمتها، وبالرغم من إكرام مليحة لها وحسن ضيافتها، لم يرق ذلك لنفساء التي لم تشكرها على صنيعها، وإنما أبدت كل مشاعر الاستياء، فها هي تتأمل بعين حاسدة وغِل زوجة أخيها المتدفقة شباباً وطاقة ونشاطاً، بالرغم من أنها خمسينية، وتصغر زوجها بنحو خمسة عشر عاماً، وما زال وجهها الخمري صبوحاً نضراً، يهش ويبش لكل من رآه، ورموشها الطويلة الكثيفة، التي أحاطت ببحر عينيها السوداوين الواسعتين الصّافيتين التي

ازدان كحل الإثمد بجمالهما، وثغرها الباسم دائماً.

تساءلت دقساء مراراً في نفسها عن الفرق الشّاسع بين مليحة وبين زوجها ضاري في الحيوية والبهاء والنضارة، فرغم أنه الشقيق الأصغر منها، فقد أصبح كهلاً، تظهر عليه علامات التقدم في العمر فالتجاعيد نقشت في وجهه ويديه وقدميه، وبدت مظاهر الشّقاء في كفيه وفي حركته البطيئة، وتقوّس ظهره.

بينما تبدو زوجته مليحة بجواره امرأة ثلاثينية، في أوج شبابها، ومما زاد من حيرة دقساء ودهشتها أنّ مليحة تقوم يومياً بأعمال شاقّة، ورغم ذلك لم يبلغ التّعب منها مبلغاً، كأنها تملك قوة ابنة العشرين، لم ينل العمر منها شيئاً، فلم تقربها تجاعيد الزمن ولم يُحنِ ظهرها بل لعله زاد من جمالها.

بقيت دَقْساء تتفحصها بعينيها الحائرتين بارتياب حتى غابت مليحة عن ناظريها للقيام ببعض شؤونها، فانفردت بشقيقها في مجلسه سائلة إياه:

- ضاري.. ما بال زوجتك لا تزال على شبابها.. أهي جنية ؟!

ضحك المسن وهو يرتشف الشّاي:

- في كل مرة تزورينني فيها تعيدين عليّ نفس السؤال!

دَقْساء وقد تبرّمت وتأفّفت من ضحكه:

- وأنت تكرر الإجابة نفسها غير المقنعة، فمهما اهتمت المرأة بنفسها يستحيل أن تحافظ على شبابها إلى هذا الحد!! انظر إليّ كم سمنت وترهّل جسدي، وسقطت خدودي وأجفاني، وتدلّى لُغدي، رغم اعتنائي بنفسي، ولكن للزمن أحكامه!! أصبحت كأني جدتها.

وضع ضاري كوبه أرضاً، زامّاً على شفتيه مومئاً برأسه متعجباً:

- لا تزالين حسودة! دعي زوجتي وشأنها!

اقتربت نَقْساه من وجهه مشيرة بكفها، وهي تضغط بإبهامها على سبابتها:

- لن أدعها!! فلقد عزمتُ هذه المرة أن أضع لها حداً، تفرغت، ولم يعد لدي ما يشغلني، ماذا أنتظر؟! أنهكتني السنون، وسرى الوهن في جسدي، ولم أعد أهنأ براحة، وصرتُ أنتظر الموت في كل لحظة، ولذا فليس أمامي سوى سر مليحة ليصلح ما أفسده الدهر أم أنك لا تتوق إليه أيضاً؟!

سكت ضاري متبرماً، بينما أطلقت نَقْساه اللّئيمة لخيالها العِنان، وأخذت تنسج خيوط المقارنات مسرفة في الغيرة، متجاوزة بذلك الحدود المعقولة، فقررت مراقبة مليحة؛ علّها تجد حلاً لهذا اللّغز من خلال تحليل كل كبيرة وصغيرة مما تقوم به.

"فجر اليوم التالي"

بدأت مليحة روتينها المعتاد بغسل وجهها والاكتحال وحلب الماعز والأغنام، وعند الضُحى غلت مقداراً من الحليب على النار حتى تخثّر ثمّ وضعته في الشعن المصنوع من جلد الغنم، وجلست تخضّه مراراً في تأنٍ؛ وهي تترنّم حتى انقضت ساعتان، وأثناء ذلك، جاءتها نَقْساه بخطوات وئيدة مترنحة على عصاتها، ثم جلست مقابلة لها تراقبها بفضول كبير فسألتها:

- مليحة، نحن نسوة ولنا أسرارنا، فأخبريني عن سر شبابك؟ وأنا أعدك بألا أخبر به زوجك أو أي أحد على الإطلاق.

ضحكت مليحة بينما تستخرج الزبدة والسّمن ثمّ تدهن بقاياه بيديها وذراعيها الناعمتين:

- لا يوجد سر في الأمن ولكني نقية السريرة، ولا أشغل بالي بأحد، ولهذا يدوم شبابي.

لم تقتنع النّقساء بكلامها، وجدّدت عزمها على أن تعرف سرها وتكشف حقيقتها، فبقيت تراقبها لأيام إلى أن حان موعد التقاط جدارة الكحل، فخرجت مليحة بحقيبتها عند الضحى إلى الوادي المليء بالحشائش والأشجار اليابسة، ثم بدأت بالتقاط الأغصان اليابسة المتناثرة وجمعها، ونقّبت بين الحشائش الطويلة بحثاً عن الأغصان الصغيرة، حتى اهتدت إلى عشّ لطائر القطا يستظلّ تحت شجرة مُعمّرة، يُحدّق فيها سعيداً بعينيه السوداوين الصغيرتين، ويُغرّد طرباً مُرَفرِفاً جناحيه بريشهما الناعم، تتباين ألوانه بين البنيّ والذّهبي والأبيض، مكتنز الجسم طويل الساقين صغير الرأس.

حملقت نَقْساء التي تسلّلت بحذر شديد خلف مليحة، وراقبتها وهي ترتب عش القطا وتتفحص جسمها الرقيق، وكأنها أم حنون تطمئن على صغارها بعد غياب، وأثناء مسحها لريش القطا برفق وفضفضتها إليه، توقّف عن التغريد، ثمّ أومأ برأسه قلقاً كأنما يريد إخبار مليحة بشيء ما، فالتفتت مليحة خلفها بتوجس وانتباه، مما اضطر نَقْساء إلى التواري خلف صخرة بجوارها.

وعندما لم تجد مليحة أحداً خلفها، طبطبت على الطّائر ثُمّ نهضت لتنقّب بين الصخور وتلتقط حجارة الإثمد، وبعد أن ملأت حقيبتها جلست أسفل الشجرة المعمرة لتفرز حجارة الكحل عن حجارة الإثمد، وبعد أن أنهت عملها، أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة، وجالت بناظريها في أغصانها القوية وأوراقها المدببة وجذعها الضّخم وظلّها المديد، وقد أطلق عليها أهل الصحراء فيما مضى من غابر الأيام اسم شجرة المعجزات؛ نظراً لقدمها

واستمرار نموها في بيئة قاسية، ولقد ظلت تلك الشجرة خضراء نضرة رغم أنها في بقعة جرداء، فخمنت نَفْساء خلال مراقبتها أن السّر في الشجرة، خاصة وهي ترى مليحة تقطف من أوراقها وتشرب من حليبها.

ودّعت مليحة قبل أن تغادر شجرتها المحببة إلى نفسها، وطائر القطا الذي كان لا يبارح ظل الشجرة لتوفر بقعة يسيرة من الماء بين جذورها الراوية.

"أثناء انصراف مليحة"

تَوارت نَفْساء بين الصخور حتى تأكدت من ابتعاد مليحة عن الوادي، فتسلّلت إلى موقع الشجرة، وقامت بتقليد مليحة ظناً منها أنها طقوس سحرية تعيد حيوية الشباب والنّضارة والجمال، ثم وقع نظرها على طائر القطا، الذي أخذ ببصره إليها، وفرد جناحيه دفاعاً عن بيوضه، فدنت منه نَفْساء لتلمس ريشه كما فعلت مليحة لكنه سرعان ما رفرف بجناحيه اللّذين أصبحا حادّين كالشّوك فجرح كفّ نَفْساء، فسحبت يدها بسرعة خاطفة، ولعنت الطائر وهي تبتعد عنه، ثمّ جلست تحت ظلّ الشجرة المعمرة لتربط جرح كفها، بينما لم يبارح القطا مكانه وأنظاره متعلقة بحذر عليها.

وما إن انتهت من تضميد جرحها حتى رفعت ناظريها إلى ورق الشجر وتذكرت ما فعلته مليحة قبل لحظات من تواجدها، فأكلت بنهم الكثير من الأوراق، ثم كسرت الأغصان لتشرب مما يخرج منها من حليب، وهي تراقب نفسها وتنتظر ذلك التّحول العجيب الذي يرجعها شابة جميلة، ولكن سرعان ما بدأت تصرخ بأعلى صوتها من ألم معدتها:

- آه، آه، بطني! بطني! ساعدوني، ساعدوني..

ترامى صراخها من بعيد إلى مسامع مليحة، فهي لا تزال تجمع بعض

الحطب بالقرب من الشجرة، فعادت أدراجها مريعاً لتجد نفساء تتلوّى من الألم، فداوتها وأخبرتها:

- دعي عنكِ التتبّع وارضي بقسمتك.. أم تُراني لمْ ألحظكِ وأنتِ تتبعيني.

عضّت نَفْساء شفتيها من الغيظ، لكنها تحاملت على نفسها واعتذرت لمليحة، وبعد عودتهما، زادت من تطفّلها أكثر فأكثر وعزمت على كشف سر زوجة أخيها، فبقيت تراقب بحذر كيف تبدأ مليحة يومها، فهي تستيقظ مبكراً، تغسل وجهها وتكتحل لتبدأ بعدها بعملها المعتاد، وعند العصر تضع الديرم على شفتيها ووجهها، وتدهن جلدها بالسّمن المبخر فتزداد رونقاً وجاذبية .

ظنّت شقيقة الزوج أنّ السر في السّمن أو الماء فعمدت إلى استعمالها واستمرت كثيراً، ولكن خاب ظنها أيضاً وأصيب جلدها بحساسية شديدة فظلّت تحكّه حتى تدرّن، فتوقّفت وأعرضت عن الدهن، واستمرت بالمراقبة وإعادة التفكير وصورة الشجرة المعمرة والقطا لم تغب عن ذهنها، إلى أن لاحظت أنّ مليحة تُحِبُّ مكحلتها العتيقة كثيراً وتحرص على استعمالها بشكل يومي بعناية شديدة مفرطة بالرّغم من قدمها والشّروخ التي تملأها، فهي لا تستخدم مكحلة أخرى غيرها، بالرغم من أنها تبيع الكحل وتملك العديد من الأصناف الجديدة ذات القنينات الأنيقة .

خطّطت العجوز الماكرة للتسلّل إلى شِقّ مليحة أثناء قيامها بممارسة أعمالها المنزلية، واستطلاع ما فيها والبحث عن المكحلة القديمة، فتسلّلت في صباح أحد الأيام خلسة إلى شقّها، وبحثت في كل مكان إلى أن وجدتها، وبينما هي تتمعّن المكحلة وتتفحّصها، دخلت عليها مليحة وانتزعت الكحل منها صارخة:

- ماذا تفعلين في شِقّي ولمَ تعبثين بحاجياتي؟!

حاولت الماكرة تدارك الأمر وتخليص نفسها بِحُجّة بحثها عن دواء لمعدتها، ثم خرجت من الخيمة مسرعة مضطربة متيقنة أنها وجدت ضالتها.

أحجمت العجوز عن فعل أي شيء لعدة أيام منذ ذلك الوقت، حتى أمنت مليحة جانبها واطمأنت إليها، وذات يوم غادرت منزلها للاحتطاب كعادتها، فتسلّلت نَقْساء مرة أخرى والتقطت المكحلة، وكحّلت عينيها، وما هي إلا لحظات حتى سرت حرارة في جسدها، وشعرت بارتواء عروقها وتزايد ضربات قلبها واستقامة ظهرها وزوال ألم ركبتيها، ولاحظت اختفاء التجاعيد من يديها، فسارعت إلى المرآة فوجدت وجهها وقد عادت إليه نضارته وجماله، وقوى عظمها ورقّ جلدها وعاد لشعرها لونه وكثافته وطوله ونعومته، ودبّت العافية في جسدها، وعادت كأنها شابة في العشرين، فلم تُصَدِّق نفسها من هول المفاجأة، وملأت السعادة قلبها وروحها، وظلّت على هذه الحالة، غير مبالية بما يحدث حولها، وكأنها غابت عن الدنيا في تلك اللحظات، وما لبثت أن أفاقت من فرحتها، فأُعجِبت بنفسها وأصابها الغرور بجمالها وشبابها وصباها، فخرجت من الخيمة فرحة بانتصارها وبلوغ مرامها، وظلّت في انتظار شقيقها لتكشف له سر زوجته، وقبيل حلول المساء عاد ضاري من عمله ليتفاجأ بامرأة جميلة في منزله متسائلاً:

- من أنتِ؟

أشارت لنفسها في إعجاب وخيلاء:

- أنا أختك!! نَقْساء!! ألم تعرفني؟!

لم يُصَدِّق الرجل العجوز عينيه، ولكنّ شقيقته أخبرته بما رأته وما مرّت به وكشفته، ثم ختمت حديثها:

- ألم أخبركَ بأنّ وراء شباب زوجتك اللئيمة سراً؟! انظر كيف أخفت عنك سر جمالها كل هذه السنوات وتركتك كهلاً! الآن بفضل هذا الكحل سترجع إلى شبابك وتُطَلّق تلك العقيم وتتزوج عليها أربع نسوة!! طأطأ العجوز رأسه قائلاً:

- من قال إنها عقيم.. العِلّة فيّ، ولكني كذبت عليها لتبقى معي.

نَفْساء وهي تتمايل بجسدها يمنة ويسرة في تهكُّم:

- ليس مهماً، المهم أنها تركتك عجوزاً كهلاً تعاني الآلام في حين أنها تتمتع بالشباب والصحة الجيدة.

ضاري بوجه صارم:

- لن أستعمل مكحلتها فقد منعتني مراراً من ذلك.

أومأت نَفْساء بجسدها مزدهية بنفسها:

- لن تخسر شيئاً.. انظر إليّ.. ها أنا ذا شابة جميلة.

بقيت نَفْساء تُصِرُّ وتُلح عليه حتى اقتنع شقيقها العجوز أخيراً، فالتقط المكحلة وكحّل عينيه بيد مرتعشة، فبقيت شقيقته تترقّب بشوق عودة شقيقها شاباً.. فرمش أمامها عدة مرات ثم التفت ساخطاً:

- لم يحدث شيء!

وما إن أنهى عبارته حتى شعر بحرقان في عينيه فصرخ بصوت عالٍ متألماً، إلى أن ابيضّت عيناه فلم يعُد يرى شيئاً، ثم كبرت ملامح وجهه،

وهاجمته التجاعيد أكثر فأكثر وتحدّب ظهره وتقوّس، وأصبح من يراه يحسب أنه جاوز المائة بعشر سنين أو يزيد.

أصابته الصدمة، فصار يصرخ ويهذي ممسكاً بعصاه، يضرب بها يمنة ويسرة مترنحاً في جنبات الخيمة من الألم والعجز ليضرب التنور ويتطاير الجمر المشتعل في أنحاء الخيمة، ويصيب وجه شقيقته فيحترق، وتتبدّل ملامحه من الجمال إلى القبح والسواد، وبينما هي تركض من لهيب النار ارتطمت بجسمها الثقيل بالعمود فاختل توازنها وسقطت مغشيةً عليها، وهوى سقف الخيمة فاشتعل كل ما فيها، وتصاعدت ألسنة اللهب، وارتفعت أعمدة الدخان في السماء وتعكّر الجو برهة من الزمن.

"في المساء"

بدا الجو صافياً، وتلألأت النجوم وكأنها قطع من الجواهر المتناثرة هنا وهناك، وداعبت نسمات الرياح الأغصان، وعمّ الهدوء والسكينة المكان.

استيقظت مليحة من غفوتها تحت الشجرة متثاقلة ممسكة برأسها من الألم، وكأنّ شيئاً ضرب رأسها فجعلها تنام كل هذه المدة، بعد أن أتمّت اعتنائها بالعش، فنهضت وإذا بطائر القطا يقف على رأسها ينتظرها، فقالت مليحة:

- تأخّر الوقت كثيراً وعليّ العودة!

فبسط طائر القطا جناحيه مستهلاً:

- على رسلك يا مليحة، فمنزلك صار رماداً بسبب صنيع شقيقة زوجك.

أطرقت للحظات، وتعاظمت دهشتها من حديث الطائر إليها، ولكنها سرعان ما انتبهت، فلم تستوعب فحوى كلامه حتى سرد لها بالتفصيل صنيع

نفساء وتطفلها باستعمال المكحلة العتيقة، فجزعت مليحة واغتمّت وانخرطت في البكاء، وتخضّلت وجنتاها بدموعها الحارة؛ فلم تتمنّ لزوجها وشقيقته هذه النهاية الشنعاء، ثمّ تذكرت أمر المكحلة فتحسّست وجهها الجميل بحزن، فطبطب عليها الطائر:

- أتذكرين اتفاقنا قبل ثلاثين سنة!

رمشت مليحة بعينيها مستحضرة ما في ذاكرتها حين كانت تائهة، وصادفت في طريقها هذه الشجرة القديمة، بينما كان طائر القطا يروي ظمأه من بركة الماء الصغيرة أسفل الشجرة، ويسير بخفّة بين جذورها البارزة، حتى علقت أرجله بين الشجيرات، فشقّ عليه نزعها ومن سوء حظّه أن ترصّدته أفعى خبيثة زحفت إليه وإلى بيضه، فأخذ يرفرف بجناحيه ويصيح مستغيثاً، حتى سمعت مليحة صفيره وانتبهت إلى رفرفته واستغاثته، فالتقطت حجراً ودقّت به رأس الأفعى فلم تتراجع وبقيت تزحف نحو البيض، عندها هرولت مليحة إلى تلك الشجرة وكسرت غصناً غليظاً بأقصى قوتها بيديها المجربتين، وما أن فتحت الأفعى فمها لتبتلع البيضة الأولى حتى ضربتها مليحة بالغصن، فاستاءت الأفعى منها ودفعت نفسها بقوة نحو قدم مليحة لتغرز أنيابها وتنفث سمّها فيها، وتولي هاربة مبتعدة عن عش البيض المتواري بين الحشائش الطويلة على مقربة من الشجرة.

شعرت مليحة بآلام شديدة في موضع عضّة الأفعى في قدمها، فصارت تصرخ وهي تمسك بساقها بكلتا يديها، بعد أن سقطت على الأرض مستندة إلى جذع الشجرة، لا تدري ماذا تصنع، ثم شعرت بتنميل في القدم، وبعد هنيهة لم تعُد تشعر بها، كأنها شُلّت! ثم تصبّب العرق منها وارتعشت، وبدت كأنّ روحها تُسلب منها شيئاً فشيئاً، لولا أنّ طائر القطا صفّر لافتاً انتباهها

ومنادياً إياها، فزحفت إليه، وبعد جهد جهيد وصلت إليه وحزّته رغم جراح أصابعها، ثم ثقل رأسها وشعرت بسريان الحمى في جسدها، وأصابها دوان فأغشي عليها.

بقيت على حالها لبعض الوقت حتى فتحت عينيها في المساء، حيث اللّيلة المقمرة، فاستحضرت ما مرّ بها، ثم انتبهت لشفاء كفيها وزوال الجراح عنها ففزّت من مكانها، وكشفت عن قدمها فوجدتها سليمة، تتحرك بقوة وسرعة لم تعهدها منذ زمن طويل، ولم يعد للشمّ أثر فيها، فتملّكتها الدهشة، ولمّا همّت بالنهوض إذ بالطائر يُقبل عليها باسطاً جناحيه حتى لامسا الأرض مفرداً، فابتسمت له مليحة وتهلّل وجهها، فنطق بلسان الإنس شاكراً:

- لن أنسى صنيعك ما حييت.

ارتعشت من الخوف ظنّاً منها أنّه من الجان، وتملّكتها الحيرة في أمره! كيف نطق؟! وكيف فهمت كلامه؟! فطمأنها، وهدّأ من روعها، ثم أوضح لها بأنّه داواها كردٍّ لجميلها معه لإنقاذ حياته وحماية عشه من تلك الأفعى الخبيثة، ثم طلب منها أن تأخذ بيضة من بيوضه الثلاثة، فتعجّبت لطلبه لكنها سرعان ما امتثلت له بعد إلحاحه وطمأنته لها، لكنها سرعان ما امتثلت له بعد إلحاحه وطمأنته لها، لكنها شدهت حين حلّق إليها ونقر عدّة نقرات على بيضته، فسقطت قشرها في حجرها، وتحوّل في طرفة عين إلى حجر من الإثمد، فأوضح الطّائر:

- هذا الإثمد هديتي، وهو خاص بك أنت، دون غيرك، فما أن تضعيه في عينيك حتى يحفظ لك شبابك ونضارتك وقوتك وحيويتك ما بقيت، ومهما طال بك العمر فداومي عليه، وتعالَي إليّ كلما نفد لأمدّك بالمزيد.

لم تُصدّق مليحة ما تسمع ظانّة أنّها في حلم جميل أو ربمابسبب الإغماء

من تأثير السم، لكنّ الطائر أكّد لها أنها الحقيقة وليست وهماً، ثم لملم قشر البيضة بجناحيه ومزجها بالتراب فتصاعد الغبار والتحم أجزاء القشر حتى صار مكحلة نحاسية جميلة مزدانة بحروف عربية كالطلسم، فالتقطتها مليحة، وعلقت في أذنها نصيحة الطائر أنّ عليها المداومة على وضع الكحل العجيب فيها إن أرادت لشبابها أن يدوم، فشكرته وظلّت معه تسامره، ولم تتركه حتى فجر اليوم التالي، وبينما همّت بالمغادرة حذّرها الطائر:

- مليحة .. انتبهي جيداً لما أقوله، فهذا الكحل يعيد شباب المرأة ويُشيخ الرجل، فلا تجعلي أحداً يعرف بسرك وإلا حلّت اللّعنة على من يستخدمها غيرك.

حافظت مليحة على عهدها مع الطائر الذي لم يتغير حاله وعشه لثلاثين سنة دون أن تعرف لذلك تفسيراً.

"عودة إلى الحاضر"

حيث استفاقت مليحة من شرودها وأدركت أنّ اللعنة حلّت على نَفّساء بسبب فضولها، فنظرت على السماء للحظات، ثم ضربت كفّاً بكف مومئة برأسها بامتعاض وأسى:

- من لي الآن؟! سيزول جمالي مع تلاشي الكحل عن عيني، وسأصبح وحيدة دون أنيس أو سند في هذه الصحراء الموحشة، فلا أهل لديّ!

طمأنها الطائر:

- ما دمتِ تفعلي الخير فأنتِ بخير.. آن لك أن تحيي حياة أخرى دونهما، فشقيقة زوجك قد عمّتها الغيرة وسعت بمكرها لخراب بيتك وكشف سرك، وزوجك لم يسمع لقولك ونصحك، كما أنّه أوهمك بأنك عاقر لا تنجبين،

وجعلكِ تشعرين بالانتقاص، وتتجرعين مرارة الحرمان من نعمة الولد، بينما العِلّة فيه وليس فيكِ.

غطّت مليحة فمها بيدها ذهولاً لجملة القطا الأخيرة، وظلت مجهشة بالبكاء فترة ليست بالقليلة، ثمّ تفكّرت فيما مرّت به ورفعت حاجبيها:

- لو أنّ نُفساء قَنعت بما لديها ولم تحسد النعمة التي في يد غيرها، لما حدث لها ما حدث، استدرجها فضولها، وخدعها غلها، وقتلها تطفلها وغيرتها وتدخلها في حياة الآخرين فهذا هو أسّ البلاء في خراب البيوت العامرة والقصور الفاخرة.

تمّت

*****

الأسطورة الثانية

لعنة الباسقة

فوق إحدى الهضاب المنبسطة بين تلال الرمال الزاهية، وأشجار السّدر والنخيل العالية، وحول أحد الآبار الفياضة، استقرت تلك القبيلة بخيامها ومتاعها، لمواصلة حياتها ونشاطها، بين جِدّ كبارها، ولعب أطفالها وبراءة أحلامهم، حتى سطعت من بينهم طفلة، أحبّتها الجمادات، من حجر وشَجر ومَدَر بشكل لا يصدقه عقل!

من هنا تبدأ الحكاية:

أنهكت (رمال) نفسها في اللّعب مع أقرانها طوال النّهار إلى أن انزوت أخيراً إلى خيمة أمّها لتلتقط أنفاسها، إنها طفلة مشرقة الوجه، تطلّ البراءة من عينيها، لم تتجاوز عامها الثامن، حنطية اللّون، بُنية الشّعر يميل إلى

العسلي عندما تُسلّط الشمس أشعتها الذهبية عليه، تُحِبُ (رمال) تجديله بين كتفيها رغم قصره، فلهما سحر خاص، خيوط شعرها السميكة ملتفّة ومتداخلة حول بعضها البعض بشكل جذاب، تُضفيان عليها لمسة جمالية ساحرة، وخصلات غرّتها الناعمة منسدلة فوق جبهتها، لتوحي بعفوية الطفولة وجمالها.

خرجت من الخيمة مجدداً لتركض حولها فرحة بفستانها الفضفاض بألوانه الزاهية المبهجة، وزخارفه الذهبية البرّاقة على صدره وذيله وأكمامه الطويلة، ثم تستهويها رائحة اللّحم المطهو؛ فتترك مكانها وتزحف رويدًا رويدًا حيث القدر الأسود المُتّقِد، فَتُفتّحُ عينيها العسليتين المميزتين بمنظر الدّخان المتصاعد من القدر، وهي ترسم بفرشاة خيالها صورًا بألوان الأدخنة المتصاعدة، فتارة تتخيل صورًا لبنات أعمامها وعمّاتها، وهي تلعب معهن، وتارة لوالديها وهما يحتضنانها بكل حب وحنان، وتارة يُخيّل إليها عصافير ترفرف بأجنحتها، أو رأس غزالة أو عنزة، أو عنقود تمر أصفر يتدلى من إحدى النخيل الوافرة، حتى قطع تصوّراتها الحالمة صوت والدتها الشّابة (وردانة)؛ لتطلب منها المساعدة في إعداد الشفرة وبسط الحصين وهنا تزحف (رمال) مجددًا إلى داخل الخيمة، فتلقي بنفسها على فراش أمها؛ لتتظاهر بالنوم والشّخير وسط ضحكات والدتها و النسوة من حولها.

"في المساء"

أسدلت (وردانة) ستار الخيمة، ثم أشعلت الفانوس، ونزعت حجابها وفردت شعرها الذّهبي المتموج حتى كتفيها، ثُمّ انزوت خلف شِقّها لِتُبدّل رداءها، وأخيرًا عادت إلى المجلس لتتربّع في جلستها، فجاءتها طفلتها ووضعت رأسها على حجرها، فمسحت (وردانة) على جبهتها بحنان، ثم

أخذت تُمشط لها شعرها بأناملها، مترنّمة كأنها تعزف على أوتار آلة القانون، مما أشعر الصغيرة بالراحة والهدوء، وأثناء ذلك سألتها الأم:

- هل اشتقتِ إلى بنات عمّتك (قَدُورة)؟

هزّت (رمال) رأسها:

- كثيرًا؛ فلا إخوة لدي، ولا أتواءمُ كثيرًا في اللّعب هنا مع أطفال القبيلة؛ فألعابهم لا تروق لي، المباطحة، المقلاع، والتدحرج من فوق التلال الرملية، هي خشنة جدًا!

ابتسمت (وردانة) حتى بدت غمّازتاها، فمسحت على جبينها:

- أفهمك يا صغيرتي، لذا ما رأيك لو نزورهن غدًا؟! فهناك قافلة تجارية ستمرُ من هنا في طريقها إلى قبيلة عمتك، ونحن سنرافقهم.

هشّ وجهها وبشّ من السرور، فنهضت تقفز بحماسة وهي تصفق وتغني وتدندن وسط ضحكات والدتها وتجاوبها معها، ثم توقفت للحظة وتساءلت:

- هل سنلتقي بوالدي هناك؟! فقد اشتقتُ إليه كثيرًا!

وجمت الأم فجأة، لكنها سرعان ما تماسكت، وتابعت:

- لا أدري هل أبلغتهُ عمتك بحضورنا أم لا!

ثم تابعت التّصفيق والدّندنة، فتناست (رمال) سؤالها وتابعت اللّعب مع والدتها.

"صباح اليوم التالي"

ساعدت (رمال) والدتها بحماسة في إعداد أقتاب الإبل؛ حيث احتاجتا

إلى جمل واحد وهودج يحمل الأم والفتاة معًا، ويربط المتاع حول الإبل، تحركت القافلة بعد أن بلغت عشرين فردًا، يحملون معهم صناديق البضائع، والكثير من الزاد؛ فالرحلة إلى قبيلة العمة (قَنُورة) تستغرق ثلاثة أيام.

"خلال الطريق"

كانت تلك هي الرحلة الأولى لـ (رمال)، جاوزت سعادتها حدّها، وانطلقت عيناها تجوب بلهفة وحماس معالم الطريق، فلا خيام أو متاع، بل فراغ شاسع، يتردّد فيه صدى صفير الرياح بين الجبال والهضاب، وأصوات الطيور التي تجوب الفضاء تغدو أو تعود، وكانت ترى أحيانا غزالاً شارداً أو وعلاً جبلياً، فتمتع ناظريها بهذا العالم الجديد عليها.

"مع مرور الوقت وطول المسافة"

ورغم توقف القافلة أحياناً للراحة وتناول الطعام والشراب وإراحة النوق والجمال، بدأ الملل يتسلّل إلى نفسها؛ فلا أطفال في القافلة تلعب معهم ويلعبون معها، فأخذت تشتكي إلى والدتها التي احتوتها، ثم أخرجت من جعبتها دمية عروس محبوكة من ليف النّخيل وصوف الغنم، ترتدي فستانًا أحمر مطرّز بدوائر ذهبية، ولها ضفيرتان قصيرتان، كانت الأم قد نسجتها لها سابقًا، وخبأتها لظرف مثل هذا، ففرحت (رمال) بها كثيراً واحتضنتها، فعادت إليها بسمتها، التي انعكست على ثغر الأم، ثم نظرت أمامها وغلبتها الأفكار فشردت في حزن.

"حيث استحضرت ذكرياتها قبل سنوات"

منذ أن تزوجت وعاشت في قبيلة زوجها (جروان)، وأنجبت ابنتها الوحيدة (رمال)، التي اعتادت كنف والديها وبنات أعمامها وعماتها، حيث كان الود والوئام والسلام والألفة يسود العائلة ويظللها، لكن لم تمر فترة

طويلة حتى تبدّل الحال، وتغيّر (جروان) كثيرًا؛ حيث أصبح شحيح اليد، طويل اللّسان، يسيء إليها، وربما يصل به الأمر إلى ضربها، فعانت منه وصبرت على أفعاله وسوء أخلاقه، حتى قررت قبل عام أن تضع حدًا لحياتها معه؛ فطلبت منه الطّلاق، لكنه رفض مستغلًا وحدتها وضعفها؛ فقد توفي والدها بعد زواجها منه بفترة قصيرة، ولا أخ لها أو سند.

فلجأت (وردانة) إلى "الدّخل" وهو أحد بيوت الرجال الخيرين الشجعان من كبار القبيلة المشهود لهم بالمروءة والشهامة، فدخلت مستغيثة مستجيرة إلى بيت أحدهم:

- أنا داخلة على الله وعليك من زوجي.

فاستجاب الرجل لطلبها وقام مقام أبيها؛ إذ أرسل في طلب (جروان)، وبعد أيام من المفاوضة والشدّ والجذب رضخ زوجها وطلّقها، ورضي أن تحضن ابنتها، فأخذت وحيدتها ولجأت إلى قبيلة أخرى.

مرّت الأيام في رخاء وهدوء، حتى أرسلت إليها حماتها السّابقة (صُبحيّة) ترجوها أن تأتي وتحضر ابنتها على وجه السرعة؛ فجدّ (رِمال) على فراش الموت، وأمنيته الأخيرة أن يرى حفيدته ويطلب المسامحة من (وردانة) قبل أن تفيض روحه، كما طمأنتها بأنّ زوجها السابق غير متواجد في القبيلة؛ فقد انقطعت أخباره عنهم منذ فترة طويلة.

انقبض صدر (وردانة)، وراودها شعور الشّك فرفضت الدّعوة على الفور، ثم تراجعت وتردّدت كثيرًا، فشاورت بعض رفيقاتها وجاراتها أملًا منها أن يؤيّدن قرارها في تجاهل الدّعوة، لكنهنّ أشرن عليها بترجيح حُسن النية وتلبية النّداء، خاصّة وأنّ الجدّ على فراش الموت ويريد الصفح، وإذا ارتابت أو تلمّست الغدر فتستطيع اللّجوء إلى الوجهاء كما فعلت حين

طلبت الطلاق.

استثقلت مشورتهن، ولكنها أخذت بها على مضض؛ كي لا يخالجها تأنيب الضّمير مستقبلًا، وها هي الآن في طريقها إلى قبيلة طليقها (جروان) بصحبة وحيدتها المدللة.

"انقضت ليلتان من رحلة السفر الشّاقّة"

عند مغادرة ضوء الشّمس للسّماء، سحب خلفه تلك الخيوط الحمراء، وقد امتزجت بزرقة السماء وسواد اللّيل، فصَبغت الدّنيا بلون بنفسجي داكن يبعث على السّكون والرّهبة في آنٍ واحد، حطّت القافلة برحالها قبالة مورد ماء، وأمامها تلّة رملية مرتفعة، خلفها نخلة باسقة وحيدة فارعة الطول، تخطف الأبصار بتمرها اليانع، لكن رغم ذلك لم يجرؤ أحد من القافلة على الاقتراب منها.

لم تفهم (وردانة) السّبب في بادئ الأمر ولم تفكر حتى في السؤال، فقد انشغلت بإناخة بعيرها وبسط الحصير وملء قربتها، ثم بسطت إناء الطعام، وقطع اللّحم تغوص في ذلك المرق مع شيء من الخضروات بجانبه، وأخرجت قطع الخبز الرقيق ليكتمل طبق الثريد الغني واللّذيذ، فرغم الظروف إلا أنّ (وردانة) لم تبخل يوماً على صغيرتها، ثم نادت عليها لتشاركها الطّعام.

بعدما مدّت ظهرها لترتاح، لكنّ (رمال) انكبّت في حضنها راجية أن تلعب معها ومع دميتها، فامتنعت (وردانة) لشدّة تعبها، بيد أنّها ضعفت أمام إلحاح صغيرتها التي تودّدت إليها:

- لا يزال هنا مُتسعًا من الوقت قبل الغروب، فلنلعب معاً "الغُمَيضة" ولو لمرة يا أمي!!

لم تقاوم الأم رغبة صغيرتها:

- موافقة، شرط ألا تبتعدي كثيرًا فنحن في البيداء.

هزّت (رمال) رأسها موافقة، فأغمضت الأم عينيها وبدأت في العد، بينما ركضت (رمال) واختبأت، وما إن انتهت (وردانة) من العد حتى بدأت في البحث عنها بين أقتاب الإبل فلم تجدها، فانخلع قلبها، ثم انتبهت إلى الباسقة البعيدة، فتنهّدت بضجر وصعدت التلّة، حيث وجدتها قد اختبأت أسفل الجذع، فضمّتها إليها وسط ضحكات الصغيرة، ثم عاتبتها برفق على ابتعادها، وفي هذه اللحظة الخاصة اختلجت المشاعر في قلب (وردانة) فعبّرت بعفوية:

- أنتِ أغلى عليّ من روحي.. ولن أسمح لأحد بتفريقنا عن بعضنا.

تناولت (رمال) إحدى حبّات الرُّطب الملقاة على الأرض فمدّتها إلى والدتها:

- أكلتُ بعضًا منها أثناء بحثكِ عنّي ووجدت طعمها حلوَ المذاق.

استجابت (وردانة) لإلحاح صغيرتها، وأخذت تتأمّل الباسقة والرطب، شكلها عادي ولا شيء غريب، فقضمت الرُّطب، وشعرت بحلاوة طعمها واستمتعت به، وأثناء انغماسها، إذ برئيس القافلة يجيء ويصرخ بهما ناهرًا:

- ماذا تفعلان هنا؟! ألا تعلمان بأنّها ملعونة!

استغربت الأم فأغلقت أذني ابنتها ثم نهضت بسرعة وتوجهت إلى رئيس القافلة ناهرة:

- على هونِك!! لا تُخِف صغيرتي بالخرافات!

ردّ عليها رئيس القافلة بحزم:

- ليست خرافات! بل يُقال بأنّ من يأكل ثمار هذه الباسقة سيلعن بالتيه في غياهب الصحراء، ويعاني الوحدة والظلام والخوف وحيدا، ومن ذا الذي سينجو بعد ذلك؟!

غضبت (وردانة):

- لو كان زعمك صحيحًا فَلِمَ أنزلتنا هنا؟!

أردف مبرّرًا:

- لاقتراب غروب الشمس وخطورة السّير خلال اللّيل في الظّلام الحالك، وحرصًا على سلامتنا؛ كما أنّ مورد الماء القادم بعيد جدًّا! وكل من في القافلة يعرف قصة هذه النخلة ولا يقتربون منها.

هزّت (وردانة) رأسها غير مصدقة، ثم رفعت يديها عن أذن صغيرتها ومدّت رطبًا إلى الرجل:

- كلّ ما يقال مجرد ترّهات عفا عليها الزمن، أتصدّق أنّ رطبًا قادرٌ على قهرك وأنت تحفظ الصّحراء عن ظهر قلب؟ جرّبها ولن تندم!! فهي حلوة الطّعم، ولم يحدث لي ولابنتي شيء منذ أن أكلناها!!

فكّر في حديثها لوهلة، ثم تناولها لكن ما إن مضغها حتى تجعّد وجهه فلَفَظها على الفور:

- إنه مالح ومر!! فكيف استسغتماه؟!

مدّت له (وردانة) رطبًا آخر:

- لعلّ العيب في تلك الحبة فقط فجرب هذه.

رفض رئيس القافلة قائلًا:

- هذا يكفي! اتركا هذه الباسقة حالًا وعودا إلى رحلكما، فإن أصابكما التيه بسبب هذا الرّطب فلن ينقذكما مخلوق، ولا تقولا إني لم أنذركما!

تسلّل بعض من الرّعب إلى قلبها، فهي لا تؤمن بالخرافات، لكنّ قولة القاطع والواثق زعزع قناعاتها، فالتفتت إلى (رمال) وأمسكت بيدها لتعودا، ومن خلفهما تراجعت سحائب الألوان وأسدلت ستائر الظلام، وشبح الباسقة يميل في هدوء مخيف.

"أقبلت اللّيلة الثالثة والأخيرة"

تناولت (رمال) العشاء مع والدتها ثم افترشت حضنها، وهي تتحدث وتحكي لها ما ستفعله مع بنات عمتها (قدورة)، والألعاب الكثيرة التي تنتظرها وتجول في خاطرها، و(وردانة) تنصت إليها باهتمام حتى داعب الوسن عينيها ونامت، فتململت (رمال) والشوق يملؤها، ثم طافت تتأمل النجوم وترسم عالمها الخاص بقصصه وخيالاته وأشكاله اللامعة، حتى وقع نظرها على الباسقة بسعفها الكثيف، التي بدت كامرأة طويلة ذات شعر مشعث، أعجبتها الصورة فنظرت إليها مطولًا، إلا أنها تذكرت تحذير والدتها وزعيم القافلة، فعرتها رهبة خصوصاً مع صمت الجميع وسكون الصحراء فغاصت برأسها في حضن أمها حتى غفت عيناها ونامت.

"صباح اليوم التالي"

فتحت (وردانة) عينيها ببطء تغالب النعاس المتبقي من اللّيلة الماضية، ثم أخذت تتحسّس مكان ابنتها (رمال)، وإذ بها تصرخ فزعة وقد طار النوم في لحظة حين لم تجدها ووجدت دميتها فقط، فهبّت واقفة تنادي في هلع:

- رمال!! رمال!! ابنتي!!

تجمّع أهل القافلة حولها، ظانين أن ابنتها قد اختطفت،وبينما هم في جزعهم، إذ ظهرت (رمال) أمامهم وهي تنادي:

- أمي!

التفتت الأم والدّموع تنهمر من عينيها، فأسرعت تحضنها بلهفة:

- رمال!! أين كنتِ بالله عليكِ! أفزعني اختفاؤك!!

ضمّتها (رمال) في أسى على بكائها:

- أردتُ ممازحتك فحسب، فلختبأتُ خلف الباسقة، سامحيني.

نظرت الأم إلى عيني ابنتها في دهشة من برودة ردّها، واصفرار وجهها، وبهتان جلدها، لكن قاطعهم استعجال الرئيس لهم بتناول الفَطور؛ فقد حان الوقت لمتابعة الرحلة التي شارفت على الانتهاء عند عصر هذا اليوم، فأعدّوا أنفسهم وانصرفوا مبتعدين عن تلك البقعة، وخلال الطريق كرّرت (وردانة) عتابها على (رِمال) التي ضمّت دمية الخوص واعتذرت لوالدتها مرارًا.

تذكر أنك حملت رواية سنابك النار حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

"وصلوا أخيرًا"

ومع كل خطوة تقترب فيها القافلة من أعتاب القبيلة يزداد قلق (وردانة) وتضطرب دقّات قلبها؛ كيف لا وقد أقسمت ألا ترجع إلى المكان الذي عانت فيه الأمرّين مهما حدث، لكنّها الآن تجيء مضطرة إلى تلبية طلب جدّ

ابنتها.

قطع شرودها صوت ابنتها المتألم:

- آي! أمي.. يدي!

فانتبهت (وردانة) أنها كانت تقبض على يد صغيرتها بقوة خلال تفكيرها حتى كادت تعتصرها دون قصد، فربّتت على ابنتها معتذرة، ثمّ استمرت بالمشي متجهة نحو خيمة العمّة (قَدُورة) -شقيقة زوجها السابق-، مُتشبّثة بيد وحيدتها، حتى لمحت (قَدُورة) وهي مقبلة عليها، ثم طلبت من (رمال) التوجّه إلى اللعب مع الفتيات بعد أن احتضنتها وقبّلتها بحرارة.

شملت (قَدُورة) (وردانة) بحرارة الاستقبال، ثم طلبت منها الجلوس والراحة بعد هذه الرحلة الطويلة وقدّمت لها الطعام، لكنّ قلب (وردانة) لم يهدأ خفقانه، فهو يضرب بشدّة من الخوف، حتى عزمت أن تطمئن على جدّ (رمال) وترحل بسرعة بعد أن يراها، فتساءلت في توجّس وريبة:

- أين خيمة عمي (ضَغب)؟ أريد الاطمئنان عليه أولًا.

هدّأتها (قَدُورة):

- على رِسلك، ارتاحي من عناء السّفر أولًا ثم...

قطع حديثها دخول امرأة شابّة تكبر (وردانة) قليلًا، سامقة الطول، خمرية اللون ذات ملامح صارمة، ذقنها موشوم وعيناها مكحلتان، كما أنها تُفسِد شعرها على جانب كتفيها وتغطي أعلى رأسها بالخمار، جلست تلك الشابة بجوار العمّة ترمق (وردانة) بازدراء وهي تلوك قطعة من اللّبان العربي في فمها، ثمّ حدّثت (قَدُورة) دون أن تزيح نظرات الازدراء عن (وردانة):

- إذن فهذه هي (وردانة)؟! ليست جميلة كما ظننت!

وارت العمة ضحكتها الساخرة بالشعال، فانقبض قلب (وردانة)، وسألت المرأة المتطاولة:

- من أنتِ؟!

ردّت عليها المرأة بتعالي:

- أنا زوجة (جروان).. طليقك، وقد سمعتُ عن ابنتك فأشرتُ على زوجي بجلبها لتخدمنا جميعًا.

اصفرّ وجه (وردانة) وهوى فؤادها، ثم قلّبت نظراتها بين المرأة و(قَذُورة) راجية أن تنكر (قَذُورة) كلامها، لكنها لم تفعل، فوقفت (وردانة)، وكادت أن تنادي على ابنتها، لكنها جزعت حين سمعت ابنتها تنادي بحماسة من بعيد:

- أبي!!

هرولت (وردانة) خارجة من المجلس حافية القدمين، وذُهلت لرؤية زوجها السابق يَضُمُّ ابنته، فتسمّرت مكانها، والتفتت نحو (قَذُورة) بسخَط:

- ألم تقولي بأنه غائب؟!!

سكتت (قَذُورة) وضحكت المرأة، بينما خرج الجدّ (صَقب) من خيمته وضرب بعصاته الأرض مجيبا بفظاظة:

- ومن تكونين لتمنعينا من حفيدتنا؟!

دار رأس (وردانة) وهي ترى الجدّ المتسلّط واقفًا أمامها في أتمّ صحّة وعافية وجبروت، والجدّة (ضُبحية) واقفة بجواره، وطليقها (جروان) ينظر إليها في استخفاف وهو يحمل صغيرتها بين ذراعيه، فأدركت متأخرة بأنّها وقعت في الفخ، فنادت صارخة على ابنتها:

- رماااال!!

ردّ عليها (جروان) بفظاظة:

- لم يكن لدينا حل لاستعادة ابنتنا إلا باستدراجك إلى هنا.

صاحت وردانة بوجه متجهّم:

- لا تقل استدراج!! إنه خداع، يا للخسة! ما زلتم في ضلالكم القديم!

عقد (جروان) يديه وشبك أصابعه، مشيحاً بوجهه عنها:

- سمّه ما شئتِ، فقد استرجعنا (رمال)، وهذه قبيلتها، ونحن أهلها، أما أنتِ فلا حاجة لنا بك!

تحدّر الدمع من عيني (وردانة)، ودارت بنظراتها حول العصابة التي أحاطت بها كحلقة مغلقة، يرمقونها بشماتة، فاستغاثت بضُبحيّة جدّة رمال:

- عمّتي.. استجبتُ لدعوتك! وخرجتُ من بينكم بالمعروف! فلم...؟! لمَ الغدر؟! لِمَ تكوون فؤادي بفراق وحيدتي، إنها طفلة لا ذنب لها!!

أمسكت (ضُبحيّة) بظهرها مجيبة في حزم وفظاظة:

- لقد انحنى ظهري من التعب، وابنتك ستخدمنا في الرّعي والطّهو وجمع الحطب، وخلال سنوات سنزوجها ونقبض مهرها لجمالها.

فوجئت (وردانة) بردها وكأنّ كل كلمة موجهة إليها لقهرها واستفزازها، فقالت بصوت مغصوص:

- لِمَ طفلتي تحديدًا؟! وماذا عن بنات ابنتك؟!

ضمّت (قَذورة) فتياتها الثلاث حولها وهي تُقبّل رؤوسهن:

- استدرجتك إلى هنا لأكفي بناتي الشقاء.

ثم التفتت إلى الجثة:

- وها قد انتهت مهمّتي يا أماه، وأصبحت لك خادمة خاصتك.

أخذت بناتها وانصرفت إلى خيمتها، تاركة (وردانة) التي تجمّد الدم في أواصرها، وجفّ حلقها، فحاولت الحديث، لكن انعقد لسانها، لم تمر لحظات بعد صدمتها حتى تكالبوا عليها ليطردوها خارج القبيلة، متجاهلين نداءاتها وصرخاتها المتوسّلة، فانسلّت منهم، وركضت باكية إلى مجلس وجهاء القبيلة، إلا أنها صُدمت حين رفضوا التدخُّل، حتى النّخيل الذي لجأت إليه سابقًا، رفض مذكّرًا إياها بأنها عاهدته على عدم الرّجوع إلى القبيلة كي لا يقع في المتاعب مع (صَخب) و(صُبحيّة) وابنهما المتسلّط (جروان)، فيكفيه ما نابه منهما من تطاول ومهانة واعتداء بعد مساعدته لها.

اسودّت الدنيا في عينيها، فاشتكت حالها لرئيس القافلة الذي رفض التدخل في شأنها؛ كونهم سيمكثون ضيوفًا عدة أيام للراحة قبل أن يتابعوا رحلتهم، ثم ذكّرها:

- ألم أحذرك من لعنة الباسقة؟! ألم أخبرك بأنّ من يأكل رطبها سيعاني التيه والوحدة؟! ولقد سفّهتِ كلامي ونسبتيه للخرافات!

لم تستطع (وردانة) أن تنبس ببنت شفة، ولم تدرِ بمَ تُجيب، فهرولت نحو خيمة طليقها تنادي على (رمال) بقهر حتى شحب صوتها، وتجمّع أهل القبيلة من حولها، فخرج لها (جروان) بعصاته الغليظة ليضربها ويطردها، فانكبّت تحت قدميه متوسّلة:

- أستحلفك ألا تُفرّقني عن وحيدتي، سأبقى خادمة عندكم لكن لا تبعدوني

عنها.

زمجر بها (جروان):

- بل ستُطرَدين شرَّ طردة؛ جزاء طلبك الطلاق مني وإقحامك للدّخيل بيننا!

أثناء كلامهما، وقفت (رِمال) من بعيد تراقب المشهد بجمود والدّمع يترقرق في عينيها وهي تضُمُ دميتها، حتى أفزعها صوتٌ أجش كنعيق الغربان تنفر النّفس منه، حيث همّت الجدّة (ضُبحيّة) بانتزاع الدمية منها ناهرة:

- لا وقت لِلّعب يا خادمة!

ثم دنت من (وردانة) ورمت الدمية ناحيتها، ووجّهت حديثها إلى العامّة بانتشاء:

- وها قد استرجعنا ابنتنا، فلماذا وقوفكم هنا؟ فلينصرف كل إلى سبيله!!

تبعثر الناس من حول (وردانة) التي حثَت التراب على رأسها بيأس وهي تبكي بقهر، حيث لم يشفق عليها أحد، فأدركت أنها أخطأت بحقِّ نفسها وابنتها، ولامت نفسها على عدم إنصاتها لإحساسها الصّادق.

لم تعُد لها وجهة محددة، صارت كل البقاع لديها سواء، حتى أرضها التي جاءت منها، لم تعد معنية بالعودة إليها، فهي ترغب أن تكون على مقربة من الأرض التي تكتنف ابنتها (رمال).

ابتلعها سواد اللّيل الحزين دون أن تُميّز ليلها من نهارها، فكل ما ترجوه أن ينتهي هذا الألم سريعاً، حتى إن كان على هيئة ذئب يُمَزّق ما تبقى منها فتنتهي محنتها.

"في المقابل"

بقيت (رمال) واقفة مكانها ملتزمة الصّمت والشّرود من هول الموقف، فقد وضعتها الجثّة في ركن الخيمة حيث الخدم، غير مبالية بها، ثم أحضرت لها ثيابًا بالية وألقتها في وجهها صائحة:

- بدّلي ثيابك النظيفة هذه فهي لا تليق بالخدم.

أومأت (رمال) برأسها وحين خلعت رداءها تساقطت حبات الرطب من جيبها، فزجرتها (صُبحيّة):

- رطب!! من أين سرقتها يا لصّة؟!

أجابتها (رمال) ببرود:

- لم أسرقها، بل التقطها من الباسقة العتيقة!

استغربت (صُبحيّة) والتفتت حولها:

- أية باسقة!! لا توجد باسقة هنا أو حول قبيلتنا!! لصّة وتكذبين؟! هيا هيا، اذهبي وساعدي الخادمات في تقديم العشاء لنا.

نظرت إليها (رمال) بجمود وتحدٍّ، ثم تحرّكت إلى الخادمات.

"وعند العشاء"

تجمّعت العائلة عديمة الضّمير على العشاء في خيمة كبير هم (ضَغب)، وهم يسخرون بانتشاء من انتقامهم من (وردانة) الكسيرة، جلسوا حول المائدة لتناول العشاء المكون من البيض المقلي مع التمر بجانب طبق من الأرز على لحم مجفف مقطّع، وعصيدة بالحساء، تتضمّن طحينًا مطبوخًا مضافًا إليه الحساء، وأوان من اللّبن الرّائب. وأرغفة من الخبز الساخن

الشهي الرائحة.

ما إن وضعت (رمال) آنية اللبن حتى زجرتها الشمطاء (صبحية):

- لن تأكلي معنا!! قفي هناك وراقبينا، وحين ننتهي تناولي بقايا طعامنا، ثم احملي الآنية والأطباق ونظفي المكان!

عضت رمال على شفتيها وأحدت النظر إلى جدها:

- كل هذا بسببك! لقد كذبت على أمي وادعيت المرض،وستدفع ثمن فعلتك.

غضب (صخب)، فصرخ بها:

- تأدبي يا شقية!! أو سأكسر العصا على رأسك.

ضحك الجميع ساخرًا منها، ثم مدوا أيديهم إلى الطعام،يتجاذبونه بعشوائية، وانكبوا عليه كأنهم آخر زادهم.

بينما نظرت (رمال) إليهم جميعًا بحزم قائلة:

- ثمن الخديعة باهظ حقًا، وكسركم لقلب أمي لن يمر بسهولة، ولن تشرق شمس الغد عليكم جميعًا.

ظلوا يرمقونها بازدراء وهم منهمكون في التهام الطعام، موجهين لها السباب واللعنات هي وأمها حتى خرجت مبتعدة عنهم.

"في نفس الوقت تمامًا"

وبينما (وردانة) تتخبط في الظلام إذ جف ريقها وضمرت معدتها وتشوش نظرها، استمرت بالسير والترنح، حتى استشعرت نفحة ريح من خلف ظهرها تُوَجِّهُها في سيرها، وتُسَرِّعُ من خطواتها، فأسلمت نفسها للريح

لإنهاكها، غير مدركة إلى أين ستأخذها، وفهمت حينها بأنها تحت وطأة لعنة الباسقة.. وفي طرفة عين، وجدت نفسها قد أصبحت أمام الباسقة فعلًا!! فتساءلت في نفسها:

- كيف والمسافة بين القبيلة الجاحدة والباسقة بعيدة كثيراً؟!

لم تقف طويلاً أمام تصديق ما حدث أو كيفية وقوعه...شربت من مورد الماء، وغسلت وجهها المُغبّر المختلط بدموعها، كما غسلت عينيها المتورمتين وهي تتساءل:

- ماذا سأفعل الآن؟! تُرى.. كيف هي أحوالك يا رمال؟اسامحيني يا ابنتي لأني خذلتك وسلّمتك إليهم!!

التفتت إلى الباسقة بحنق وخاطبتها:

- لماذا أنا؟! لماذا؟!

أثناء حديثها صعدت إلى التلة وأصبحت في مواجهة الباسقة، وفجأة سرَت رعشة في جميع جسدها، ولم تصدّق عيناها ما أبصَرَتْ، وهالها ما رأت خلف جذع الباسقة!!

صُعِقت مما تراه أمامها!!

"عودة إلى القبيلة"

حيث لا زالت العائلة الجاحدة منهمكة في ازدراد العشاء، حتى مرّ عليهم أحد الجيران وراعه منظرهم، فصاح بهم:

- عجباً!! أجننتم؟! كيف تأكلون العقارب الحية؟!

استغربوا كلامه، ونظروا إلى بعضهم البعض بتعجب، بينما صاح الرجل

بأهل القبيلة الذين وقفوا أمام العائلة مذهولين منهم، مما زاد الجد (صَغب) حيرة، ثم نظر إلى حفيدته (رمال) التي صفّقت صفقة بيديها فأزيحت الغشاوة من أمام أعين العائلة، وذُعِرُوا لفعلتهم؛ فقد وجدو أنفسهم يأكلون العقارب الحية عوضًا عن اللّحم المفتت والتّمر بل إنهم كانوا يشربون من اللبن الفاسد باستساغة دون أن يذكروا ما جرى لهم!!

ارتعب الجميع وتصايحوا!!

فلقد نالت العقارب بسمّها الفتّاك من معدتهم، كما لدغتهم العقارب الحية، فالتفتوا نحو (رمال) التي رمقتهم في برود متمتمة:

- ألم أخبركم أنّ الشّمس لن تشرق عليكم؟!

أطلق الجدُّ الظّالم صيحته الأخيرة:

- ساحرة!! فلتقتلوها!!

تكالب أهل القبيلة على (رمال) وانكبوا ليقبضوا عليها، وما إن أمسكوا بها حتى تحوّلت إلى ذرات من الرمال وتلاشت، بينما سقط جميع أشقياء العائلة الظالمة صرعى.. لقد أعماهم الظُّلم، فأعمت (رمال) بصيرتهم، وسفّقوا أنفسهم بأيديهم.

"عودة إلى (وردانة)"

لقد تملّكها الذُّهول وهي ترى خلف جذع الباسقة حصيرة وسلّة وظلاّ، بالإضافة إلى طفلة نائمة والرطب بجوارها، فشهقت:

- رمال؟!

ثم سمعت حفيفًا من سعف النخل، فرفعت رأسها، وإذا بكائن أسود متجسد على هيئة طفلة، وحوافه من جريد النخل اليابس، لكنه دون ملامح،

يخاطبها بصوت طفولي:

- لا تفزعي، فهذه ابنتك (رمال) سالمة آمنة.

تلعثمت (وردانة):

- إذا!! من تلك التي انتزعها مني طليقي؟!

ابتسم لها الكائن، ثم مدّ إليها قطعة من الرطب وخاطبها:

- تناوليها وستعرفين كل شيء.

امتثلت (وردانة) لأمره دون تردّد، فشعرت بفتور بأطراف جسدها، فجلست وأسندت ظهرها إلى جذع النّخلة وأغمضت عينيها، فغشيتها ومضة نور قوية أتبعها مشهد جَليّ.

"ففي تلك اللّيلة التي حطّت فيها القافلة قرب الباسقة"

وحين أكلت (وردانة) من الرطب أول مرة واستحلت مذاقه، استطاعت الباسقة معرفة قصتها واستشفاف قلقها وريبتها، فأرسلت الريح نحو القبيلة، وحين أدركت تدبير العائلة الخبيثة للمكيدة، قرّرت الباسقة التّصرف وإنقاذ (رمال)، فانتظرت حلول اللّيل، حيث استغرق الجميع في النوم بمن فيهم (وردانة)، وبقي الكائن يراقب (رمال) التي كانت تنظر إليه وتظنه امرأة بشعر أشعث كثيف، لكن ما إن غفت عينا (رمال) ونامت، حتى نزل الكائن ورفع يد الأم التي كانت تحتضن ابنتها النائمة وسحبها برفق، ثم وضع الدّمية مكانها؛ حتى لا تشعر الأم بأيّ شيء، وغادر بهدوء وسلاسة وهو يحمل (رمال) بين ذراعيه بخفة، حتى اختفى أثرهما خلف التّلة.

وضع الكائن (رمال) برفق أسفل الباسقة العتيقة، وبقي يحرسها طوال الليل من الذّئاب، وعند شروق الشّمس واستيقاظ (وردانة) وجزعها على

ابنتها، تشكّل الكائن بهيأة (رِمال) وأوصى الباسقة بالاعتناء بالطّفلة، ريثما يذهب إلى القبيلة ويُلقّن العائلة اللّئيمة درسًا قاسيًا، وأكمل الرحلة مع (وردانة) بدلًا من رِمال الحقيقية.

هتنت دموع (وردانة)، فحين يئست من نجدة البشر عاونتها الجمادات، أثناء نومها غمغمت متسائلة:

- وماذا فعلت طفلتي حين استيقظت وحيدة في العراء؟!

"ظهر وميض ساطع أمام (وردانة) فتغير المشهد لترى ما عايشته وحيدتها أثناء غيابها"

"فعند البقعة التي حطّت فيها القافلة وبعد أن رحلت واختفت عن الأعين"

استيقظت (رِمال) عند الضُّحى من نومها العميق متفاجئة من مكانها، دَهِشة أنّ والدتها ليست بجانبها ولم توقظها، ثم تلفّتت حولها فلم تجد أحدًا، ففزّ قلبها وتسارعت أنفاسها، وأخذت تتسلّق التّلة الصغيرة، ثمّ شهقت وهي ترى آثار رحيل القافلة، فصاحت:

- أمي!! أمي!!

ازداد خوفها؛ فكلّما ارتفعت الشّمس ازدادت حرارة الأرض ووعورة الصحراء، تقرقرت معدة (رِمال) من الجوع، وجفّ حلقها من العطش، لكنّ جزَعها كان أكبر فجلست تحت النخلة؛ فهي المكان الوحيد الظّليل، كان الصوت الوحيد في هذا الصّمت بكاؤها الشّديد، فمن سيساعدها ويؤانسها؟ وكيف سترجع؟ وهل سيكتشفون غيابها؟ وهل عليها اللّحاق بهم أم الانتظار؟

لم تهدأ عيناها، وكلّما ارتاحت قليلاً تنهض لتركض يمنة ويسرة علّها تجد

الملاذ، لكن دون جدوى، فكانت النخلة الباسقة مؤنستها الوحيدة، جلست تحتها وأسندت ظهرها إليها، ثم تكوّرت على نفسها وأجهشت بالبكاء، حتى سمعت صوتًا خفيضًا يطمئنها:

- اطمئني يا صغيرتي!

رفعت (رِمال) رأسها والتفتت حولها فلم تجد شيئًا، فوقفت ودارت حول النخلة لكنها لم تجد أحدًا.. احتارت.. وظنّت أنها تتوهّم، فتسلّل الخوف إليها، فعادت وتكوّمت على نفسها وواصلت البكاء، فتكرّر الصوت الناعم مجددًا:

- ارفعي رأسك واطمئني يا صغيرة.

رفعت رأسها ولم تجد أحدًا، فتجدّد الصّوت:

- اقتربي من الجذع.

رفعت رأسها وأخذت تقترب، ثم بحركة تلقائية وضعت يديها على الجذع، ثم دنّت بأذنها فتردّد الصّوت بوقعٍ أوضح وألطف:

- أنا الباسقة العتيقة، أتحدّث إلى الأنقياء وأساعدهم، مثلك يا صغيرتي.

توجّست (رمال)، لكنّ خيالها الواسع جعلها تتقبّل غرابة الموقف، فوقفت وسألتها:

- وكيف ستساعدينني وأنتِ ثابتة في مكانك؟

دار الجذع قليلًا، فقالت النخلة:

- أستطيع الدّوران والبحث عن قافلتك، فأنا شاهقة مرتفعة، لكنهم ابتعدوا كثيرًا، وكذلك أستطيع إطعامك من رطبي.

أنزلت لها عنقود الرطب فالتقطته (رمال) وكادت أن تأكل، لكنها استحضرت تحذير والدتها فتراجعت:

- لا أستطيع، فيكفيني من التيه ما أنا فيه، وأحتاج لقاء أمي على مَدْ جوعي.

طمأنتها الباسقة:

- لو أردتُ لكِ الضياع لما آويتك تحت ظِلّي، وقد أحزنني بكاؤك، وهذا وعدٌ مني بأن أحميكِ حتى تلتقي بوالدتك.

شعر قلب الفتاة بصدق كلماتها، وغالبها الجوع، فمدّت يدها وأكلت حتى شبعت وامتلأت:

- شكرًا لكِ، لكن ما زال هناك الكثير من الرطب، ماذا سأفعل به؟

أخذت النخلة من سعفها سلّة من الخوص، وأعطتها إياها قائلة:

- خذي هذا ليحفظ لكِ التمر.

ثمّ أكملت سحرها بأن نسجت لها بساطًا من الحصير وأنزلته لها:

- اجلسي عليه ليقيكِ من حرّ الرمال الساخنة.

كانت (رمال) مندهشة والإعجاب يملؤها وكأنها في حلم، حيث ختمت النخلة ذلك العرض بصنع منزل أعمدته من الجذع وسقفه مِنَ السّعف، وأدخلتها إليه قائلة:

- وهذا المنزل ليظلكِ ويؤويكِ ريثما تعود والدتك، وخذي هذه القُبّعة، وهذا الحذاء، فقد صنعتهما خصيصاً لكِ.

ردّت (رمال) في استغراب:

- وكيف تعلمين أن والدتي ستعود؟

أجابت الباسقة العتيقة:

- سبق أن أخبرتك بأنني أتحدّث فقط إلى الأنقياء وأساعدهم، وصديقي الكائن سيرجع والدتك إليك، فاطمئني.

اطمأنّت لها (رمال)، وانتظرت والدتها بصبر شحيح حتى جاءت، فأكلت وشربت، ثم غَفَت عيناها وها هي الآن تغطُّ في سبات عميق في رعاية الباسقة العتيقة.

"عودة إلى الواقع"

انزاحت الغشاوة عن عيني (وردانة)، وإذ بها ترى ذلك الكائن متجسداً بجوار النخلة، يبتسم لها:

- فلتهدئي ولتهنئي، ولتقري عيناً، لقد أصبتُ بلعنتي كلّ من دبّر لك السوء، ولن يطاردك أحد بعد اليوم؛ فقد هلكوا جميعاً، فلتعيشي في سلام؛ لنقاء سريرتك وطهر قلبك.

ثمّ أراها مصيرهم، فاستغرقت بخاطرها في كلامه، حتى استدار في لمحة خاطفة ليتسلّق جذع النخلة وحين اقترب من السّعف نصح (وردانة):

- لا تتجاهلي أحاسيسك الصادقة أبداً، ولا تُقلّلي من يقينك مهما حدث.

انفرجت أساريرها وانهمرت دموعها مؤذنة بزيارة السعادةقلبها بعد طول انتظار وشكرت الكائن على معونته لها التي لن تنساها ما سرى فيها نبض الحياة، بينما اندسّ بين السعف الأخضر الكثيف حيث بيته، ولم يعُد له أثر.

تحيّنت (وردانة) شروق الشّمس، فأيقظت وحيدتهاوضمّتها إلى صدرها بسعادة وأمان لم تشعر بمثلهما من قبل، ثم أخذت بيدها وسارتا معًا خلف

الآثار التي رسمتها الباسقة لهما، والرياح الباردة تلفهما وتؤنسهما، حتى صادفتا قافلة أخرى عائدة إلى ديارهما فالتحقتا بها، وعندها علمت (وردانة) أنّ ذلك التيه لم يكن إلا سببًا في الهدى والعودة والالتئام.

تمت

* * * * *

الأسطورة الثالثة

سنابك النار

لطالما انتشرت سِيَر الفارسات البطلات، فهل يقبل التاريخ بهنّ، أم يُفنيهن؟

مِن هنا تبدأ الأسطورة:

أصبَحَتْ في موقف لا تُحسد عليه أبدًا، إنها في قمّة الجبل الصّخري، في ظلمة اللّيل تحت سطوة القمر مُلقاة على الأرض مُخضّبة بالدّماء، مُصابة في خصرها جراء الرصاصة الأولى، أمامها مجموعة من الرجال، أحدهم يحمل بندقيته ويُصَوِّبها نحو جبهتها بتردد، والآخر يستحثه صارخًا به:

- اقتلها!! اقتل من دنّست شرفنا، فالعار لا يؤخذ إلا بالدّم!!

اتّحد زعيق ذلك المُخرّض المستفز بصوت الرعد الهادر وهدير الماء جراء زخّات المطر المنهمر فوق سفح الجبل، ومع صواعق البرق التي يشقّ ضوؤها ظلمة السماء بين فينة وفينة، تتراءى لها أقدام هؤلاء في حركة دائبة حولها، وهي ترتعد من بينهم، وقد مازج الماء دماءها، ولم تعد تحرك ساكنًا.

احتبست الكلمات في جوفها أمام هذا المأزق، فليس أمامها من ينصفها،

سوى جوادها الأسود الجامح، الذي كان ثائرًا حائلًا بينها وبينهم، يصهل عاليًا ويرفع حوافره، ثمّ يقدح بهما الصخر فيتطاير الشّرر في كل مكان، لكنّ هيجانه ليس كافيًا لحمايتها؛ فقد نالته الرصاصات حتى خرّ من فوره صريعاً، فلم يعد أمامها سوى أن تقبل بمصيرها، رغم غُصّتها بالظُّلم الذي أصابها، فكيف تكون هذه نهايتها؟

لِنَعُد إلى البداية...

"قبل عِدّة أشهر"

حيث حطّت قبيلة (خَطّار) رحالها، وثبّتت أوتادها في بقعتها الجديدة، نُسجت حكاية (عالية)، تلك الفتاة النّجيبة ذات السّبعة عشر عامًا، حادّة الذكاء، لمّاحة، جميلة جمالاً لم تقع العين على مثيله، سامقة، ممشوقة القوام، ضامرة البطن، نحيلة الخصر قدّها كأنّه غصن بان يتثنّى، أنفها دقيق صغير كأنف الأميرات، خمرية اللون مُشرِقة الوجه، يُضفي النّمش البني الفاتح أسفل عينيها سحراً على سحر طلعتها التي تخلب الألباب، خفيفة الحركة مفعمة بالحيوية، وهي تختال بأناقة في ثوبها الأسود المطرّز بزخارف حمراء وذهبية على جانبيه، لون شعرها الكثيف كسواد ليلة غاب عنها القمر عليه خمار أصفر يتخلّله الهواء فتسرق منه خصلات ناعمة النظر فتعيدها بيديها، فتكسو وجهها حمرة الخجل!

تبدأ صباحها بالمعاونة في ترتيب الخيمة وإعداد الطّعام،ثمّ تنتعل حذاءها الخشبي المنحوت بتعرّجات يناسب أنوثتها العذبة، فتمسك بعصاتها لتخرج لرعي الماشية، وعندما ترجع تعاون زوجة عمّها (رُفَيدة) في أعمال المنزل، ولمّا تتفرّغ بعد المغرب تجمع أطفال القبيلة حولها لِتقُصّ عليهم حكايات من نسج خيالها، بينما تغزل وبر الجمل لتخرج منها خيوطاً وحِبالاً، وبعد أن ينفضّوا من مجلسها، تطهو العشاء وتتناوله، ثم تطفئ النار وتخلد إلى النوم.

كلُّ هذا النشاط حاز على اهتمام ابن عمها (جَهم) الذي يكبرها بعشر سنوات، شاب، من نظرة إليه لا تميزه، هل هو أبله أم عديم الذكاء؟! هل تتعاطف معه أم ترثى له حين يقع نظرك عليه؟! بشرته حنطية، عيونه ضيقة، لو نظرت إليها كأنك تنظر إلى عيني ذئب ماكرة، متربصة، فإذا فاجأه أحد بالحديث أو النظر تحولتا لعيني عنزة ضالة في الصحراء، هزيل البنية، شاربه طويل غير مهذب، كلامه إذا لم يفكر جيداً، لون من الطلاسم أو الهذيان، ولولا تلك اللحية الكثة وهذه الثياب البدوية غالية الثمن لأصبح عارًا على قبيلته، فحياة الصحراء القاسية أعطته مظهرًا قويًا، إلا أن الجُبن يتخفى خلف نظراته، وهو الذي يوم وُلِد وأسماه والده جهماً تعجبت والدته:

- لماذا هذا الاسم الغليظ لهذا الوليد الهزيل يا فاضل؟!

فنظر فاضل إليه وهو يحمله:

- آمل أن يكون أقوى وأشجع شباب القبيلة.

ولكنه خيب رجاء أبيه!

وقف جهم يلتهم (عالية) بنظراته ويستطرب مديح والدته لها، ويتمناها لنفسه، كيف لا؟ وهي التي اضطرت للعيش معهم قبل فترة وجيزة، بعد أن مات والداها جراء مرض عضال، ولم يعد لها مُعيل سوى عمها (فاضل) الذي احتواها في عائلته الصغيرة، المكونة من زوجته (زُفيدة) وابنهما (جَهم)، لم تُقصّر زُفيدة معها أبدًا، فقد عاملتها كابنتها تمامًا، فأحبتها، وأحسنت إليها، وأكرمتها، فامتنّت لها عالية، وعرضت أن تهتمّ هي برعاية الماشية؛ كونها كانت معتادة على ذلك مع والدها، فلم تجد العمّة المُسنّة مانعًا من ذلك.

منذ انضمام عالية إلى عائلة عمّها لم يكن هناك ما يُنغّض عليها سوى جَهم، الذي يطاردها إمّا بنظراته أو تلميحاته المزعجة، بينما هي تَصُدُّه باستمرار وتتجاهله، حتى أنها صرّحت له ذات مرة بغضب وهي تُدخل الماشية إلى الحظيرة:

- لو كنتَ آخر رجل في الدنيا لما تزوجتُك، فأنا عالية غالية لا أستحق سوى أميرٍ عالٍ المقام!

فغرق في نوبة ضحك ساخراً، وكان متكئاً على عصاته بكلتا يديه، فاختل اتزانه وكاد أن يسقط:

- ومن ذا الأمير ابن الأمير الذي سينظر إلى بدوية راعية غنم مثلك؟!

لم تبال بإجابته، بل امتلأ صدرها بأنفاس العزّة والفخر فرفعت هامتها وأجابته بنبرة واثقة ونظرات قوية أربكته:

- إذاً، لا مانع من أن أبقى حُرّة أبية، وإليك عني يا جهم قبل أن أبلّغ عمي بأفعالك معي!

تجرأ واقترب منها متحديًا:

- وهل سينصر أبي الغريبة على ابنه؟!

أوصدت باب الحظيرة بقوة منفّسة عن غضبها، ثم انسلّت إلى خيمتها والهمّ يملؤها، وأصبحت لا تأمن وحدتها في حِقّها، خاصّة أنّ خيمتها بعيدة قليلًا عن خيمة عمّها وزوجته، فأخذت سكيناً ووضعتها تحت وسادتها، حيطةً وتهيؤًا لأيّ تطاول محتمل.

"مرّت الأيام"

وبينما كانت عالية تتجهّز للرّعي مع شروق الشّمس، إذ لفت انتباهها صوت

رجال القبيلة وهم يتدربون على النزال والرماية في أطراف القبيلة، فبقيت تراقبهم عن كثب حتى دنا منها عمّها يناديها:

- عالية!! ما بك؟! ناديتكِ مرارًا ولم تنصتي إليّ؟!

التفتت إليه عالية وأشارت نحو الفرسان دون تردد:

- عمّي.. أريد أن أصبح فارسة مثلهم!

قرّعها عمها:

- صهِ!! فعارٌ على بناتنا أن يحملنَ السّيف!!

فنظرت إلى عمّها حانقة، وبدا وجهها جاداً:

- لكنه مصدر أمان لنا؛ لنصون به أنفسنا وديارنا!

تضايقَ عمُّها (فاضل) من كلامها واشتكاها إلى زوجته (زَفيدة)، التي وبّختها في المساء وقرّعتها على حلمها، ثمّ ختمت كلامها:

- ليس للفتاة سوى بيت زوجها، فهو المسؤول عن صونها وحمايتها! وحذارِ أن أسمعكِ تهذين بهذا الهراء من جديد!

امتعضت عالية، وتضايقت، ثمّ حاججتها:

- تسمحون لي بالرعي في أعالي الجبال وأبعد الأماكن بمفردي مع الغنم، ولا تريدونني أن أتعلّم كيف أحمي نفسي؟!

لوّحت زفيدة بيديها:

- لديكِ الكلب وهو سينبح ويصدُّ أيّ خطر عنكِ فلا تثرثري كثيرًا!

أنهت كلامها ثم انصرفت تاركة عالية التي لم تُبارح فكرة الفروسية عقلها،

فقد كانت مُتَخَوِّفة من تطاول ابن عمها وغيره عليها، خاصّة أنها دون والديها، وإن مسّها ضرٌ فسيقع كامل اللّوم عليها.

"في اليوم التالي"

أخذَت القطيع وسارت به في ذلك الوادي المكسو بالخضرة، تهشّه بعصاتها ليتحرّك في تناغم وتناسق، وتراقب الكلب الذي يحاوطهم حتى لا يحيدوا عن الطريق، ويحرص على عدم ابتعادهم وتَشَتُتِهم، بينما أكملت عالية صعودها الجبل بصعوبة معتمدة على عصاتها في طريق مُمَهّد، لكنه ضيق وبه تعرجات ومنحنيات، على يمينها جبل صخري عالٍ تبطنه الحشائش الخضراء وشجيرات شوكية، وعن يسارها وادٍ منخفض ، فسارت في طريقها بحذر شديد، وهي تتلفّت حولها خوفاً من ذئب أو وحش أو ثعبان، وظلّت تصعد وهي تنقر بعصاتها الأرض وتزيح بها الحشائش الطويلة التي تعيق صعودها، وبينما هي تُلوِّح بعصاتها يمنة ويسرى، إذ سمعت صدى طرقة لعصاتها أحدث صوتاً ذا رنين، وكأنه آنية نحاسية كبيرة مجوفة، فتابعت الطرق في أكثر من موضع حتى حدّدت المكان، في صخرة كبيرة عن يمينها، تخفيها الحشائش والشجيرات الصغيرة، وبعض الأخشاب الجافة ، ثمّ أزاحت الحشائش والأخشاب، فإذا هي فتحة غائرة قليلاً منحوتة في الصخرة، وكأنها مدخل قبو، عليه باب حديدي صغير ارتفاعه يفوق عرضه، بحيث يمكن لرجل أن يدخله جاثياً على ركبتيه، خافضاً رأسه ، تعجّبت عالية من وجوده، فهذه أول مرة تراه!!!

التفتت ناحية القطيع أمامها، فوجدت الكلب يتولّى زمامهم، فانتهزت الفرصة، وانحنت لتفتح الباب القصير الذي كان عالقًا كأنه لم يُفتح منذ فترة طويلة، سحبته بقوة حتى فُتح بصرير عالٍ، فإذا هو حُجيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها المترين، وكأنّهُ قبر مغلق، لكنّ أشعة الشمس ساعدتها في

رؤية تشقّقات الصّخور تملأ جدرانها، فخمّنت أنّ هذا الباب شُيّدَ ليحمي الرّعاة من أخطار السّباع أو الأعداء.

أوصدت باب الحُجيرة وانصرفت إلى ماشيتها، وصورة فرسان قبيلتها لم تُفارق عقلها، فأصبحت تحاكي حركاتهم بعصاتها الخفيفة ، وبالفعل، أصبحت تصيح وتهوي بعصاتها في الهواء مرارًا وتكرارًا، حتى تصبّب منها العرق، وبُحّ صوتها من كثرة الصّياح، فاستحسنت إنجازها، وأسدلت خمارها لتُخفّف عرق رأسها بعد أن اطمأنّت لخلوّ المكان حولها، ثمّ ارتدته على عجالة، وفي المساء بقيت تفكر وتُخطط كيف تصنع لنفسها أسلحة وتواريها في تلك الحُجيرة؛ لتتدرّب عليها كلّما خرجت للرّعي.

"في اليوم التالي"

عند خروجها إلى الرّعي، صادفت الحدّاد المتجول وهو يزور قبيلتها على حماره بينما يركب ولده بعيراً محمّلاً ببعض أغراضه وأدوات الحدادة وخيمة صغيرة خلفه، حيث حطّ رحله ووتّد خيمته على أطراف القبيلة، فذهبت إليه، وطلبت منه أن يصنع لها سيفًا وألا يخبر أحدًا به، ثمّ أغرته بأنها ستُعطيه شاة مقابل ذلك، فوافق الحدّاد، وخلال أيام نفّذ طلبها، وبعد مغادرته للقبيلة، مار بإبله قرب الجبال حيث انتظرته وأخذت السّيف بلهفة منه وأعطته الشّاة، وتفرّقا، فأعجِبت عالية بسيفها الثّقيل، وصارت ترمي به في الهواء حتى خدرت كتفيها لثقله، فخبّأته في الحُجيرة عند غروب الشّمس، وحين رجعت كذبت على عمّها وأخبرته أنها أضاعت إحدى الماشية فأكلها الذّئب، فاستشاط عمّها غضبًا، وارتفع صوته صارخًا، فالواحدة من الغنم تساوي حياةً بالنسبة إليه، والتّفريط فيها لا يُغتفر وأقسم برأس أبيه أن يذيقها عقاباً لن تنساه، فأسرع وأحضر العصاة ليضربها، إلا أن زوجته وقفت في وجهه تدافع عنها، وبعد محاولات عديدة،

انتهى الأمر بفاصل من التوبيخ وحرمانها من العشاء تلك الليلة.

لم تبالِ عالية لقرقرة معدتها الفارغة، فقد انتابتها سعادة بالغة بإنجازها، وأصبحت تتخيّل نفسها وهي تَذُبُّ عن نفسها الأخطار بافتخار.

"بعد عدة أسابيع"

عاد الحدّاد؛ فطلبت منه عالية أن يصنع لها رمحًا وقوسًا وسهامًا، وأهدته شاة أخرى، ولكن حين طلبت منه أن يشتري لها بندقية، انتفض ورفض؛ كون هذا الأمر يفوق قدرته، وخاصة أنّ البندقية باهظة الثمن، وتحتاج أشهرًا لتصل من مصنعها، والقليل من يعرف كيف يتعامل معها، فلن يخاطر لأجلها، فاقتنعت عالية بأسلحتها، ودأبت تتدرب عليها لأشهر، وكانت تذهب كل فينة وفينة إلى ملاعب فرسان القبيلة، فتختلس النظر إليهم وهم يلعبون بسيوفهم أو يتدربون عليها، ثمّ تقوم بمحاكاتهم عندما كانت تذهب للرعي بين الأحراش وفي أعالي الجبال، إلى أن ازدادت ثقتها بنفسها، فأصبح رأسها مرفوعًا مصوّبًا نحو هدف عظيم يلمع في عينيها، وظهرها مستقيماً وكتفاها مرتفعين، كما أنّها تمشي بخطوات موزونة ثابتة محسوبة، فانتبه جَهم لنشوتها وشكّ في أمرها فتتبّعها، وظلّ يتلصّص عليها حتى كشف سرها، حين رآها تفتح باب الحجيرة وتخرج الأسلحة وتتدرّب عليها طوال الوقت، فأدرك أنها أصبحت أقوى وقادرة على قتله إن تهجّم عليها، فلم يعلم ما يفعل، فهي لم تلِن معه خلال الأيام الماضية، هنا قرّر أن يضعها تحت الأمر الواقع، فرجع، وفي المساء عرض على والديه أن يتزوجها، فوافق والده الفور، وأخبر عالية بقراره، لكنها ثارت و عارضت ورفضت الأمر جملة وتفصيلًا، فأوضحت لها زُفَيدة:

- إن تزوجتِ بابني فلن يكون عليكِ الرّعي! فأنتِ ستهتمين به وتعتنين ببيتك وعيالكما.

هاجت عالية:

- وهل اشتكيت لكما مشقّة الرّعي؟! لا رغبة لي في الزواج، فحزني على فراق أبي لم يزل في قلبي!!

وبّخها فاضل:

- لو كان أبوكِ هنا لزوّجكِ على الفور! وأنا الآن وليّ أمركِ! ولا رأي لبكر!

لم تنته الجلسة على وفاق، وخرجت عالية باكية في ظلمة اللّيل أمام حظيرة الماشية، فجاءها ابن عمها من ورائها وفاجأها بصوته:

- أعرفُ سركِ الصغير في الجبل، فتزوجيني كي لا أفضحك.

كفكفت دموعها وواجهته بوجهها الأحمر الغاضب بشجاعة:

- عار عليك أن تستفرد بي يا عديم المروءة!! ثمّ ما الشر الذي أواريه هناك؟!

حكّ جَهم ذقنه بطريقة مستفزة ورفع أحد حاجبيه:

- الأسلحة وتلك الماشية التي أعطيتها للحدّاد مقابلًا لها، وادّعيتِ كذبًا ضياعها!!

بهت وجه عالية، فتابع جَهم:

- أنتِ تعرفين استهجان قبيلتنا للنساء اللاتي تُمسكن بالسّلاح، فذلك الفعل مشين ويحطّ من قدر الرّجال وكأنهم غير قادرين على حمايتهن، فما بالكِ بأبي حين يعلم أنكِ عصيتِ أمره!

سحبت عالية سكينها من تحت كُمّها ووجّهته في وجه جَهم:

- هه، كم أستحقلُ ظِلّك، إن فُرِضتَ عليّ، فسأهدر دمك، ولُأبيّتك في قبرك

حتى وإن ألحقوني بك!

ارتعد لقوّتها وثقتها، وتراجع للوراء، ومسح عرق جبينه بكمه، لكنه وارى ارتباكه بابتسامة مرتعشة خبيثة، ونظر إليها في تحدٍّ:

- إن لم تكوني لي، فلن تصبحي لغيري.

هزّت جملته كيانها، فدفعته، وانصرفت إلى خيمتها تبكي بغصّة من الحِصار الذي تعيشُه.

"في اليوم التالي"

عادت إلى الرّعي وكلّها حذر وخوف وترقّب، حتى إنها لم تذهب إلى حجيرتها قط؛ خشية أن يشي بها جَهم ويباغتها بالمجيء مع عمّها، أثناء انطوائها على نفسها وترنّمها، لاحظت من بعيد جوادًا أسودَ أدهمًا جامحًا، يُجَلْجِل صدى صهيله في المكان، ويضرب الأرض الصّخرية بحافريه الأماميتين فيخرج شرارًا عظيماً يشتعل للحظات ثم ينطفيء، ثم يعود لنفس الكرّة كلما حكّ الصخر بسنابكه.

استغربته! وخاصة أنه بدون فارس، فأمسكت بعصاتها واقتربت منه فإذا هو هائج لا سرج عليه، وهذا يعني أنّه غير مُرَوّض، لعله حصان بري! فتمالكت شجاعتها، ودنت منه رغم هيجانه، إلى أن وقفت بجانب كتفه الأيسر وحاولت تهدئته بأن مدّت يدها إليه برفق، فهدأ وتابع بترنّح حركة يدها البطيئة إلى أن اطمأن إليها وسكن، فمسحت على ناصيته برفق فاستحسن فعلها وامتثل لها، ثمّ أخرجت من حقيبتها بعض التمر المدهون بالسّمن ومدّته إليه فتناوله في هدوء وسرور.

تبسّمت عالية وهي تراه طوع بنانها، وتمتمت معجبة بجمال لونه وسواد

شعره ولمعان عينيه، ثمّ تحسّرت:

- لو كنتُ أعرف الفروسية لاقتدتك.

طوّقها الجواد بعنقه الطويل كأنّه يضمها إليه شكرًا وعرفانًا، ثم دار حولها في مرور وانصرف مبتعدًا، فلوّحت له عالية بذراعها كأنها تودّعه حتى ابتعد عن ناظريها.

"وفي المساء، أثناء العشاء"

بقيت عالية ساهمة في أمر الجواد الأدهم، وتتذكر لحظة تمسحه برأسه بها، وظلّ فكرها مشغولاً به تلك الليلة وبالنار التي تقدح من أسفل قدميه، آملة في فرصة أخرى للقائه، وتحثُّ نفسها على صناعة مسرج ولجام له تارة، ثمّ تتذكّر بأنها تحتاج إلى تعلم اعتلاء صهوته تارة أخرى، بقيت تلوك الدُخن في فمها حتى خطر لها أن تسأل عمّها فاضل بفضول:

- عمي.. لِمَ لا تبتاع لنفسك جوادًا؟

استغرب العمّ سؤالها، ثم أجابها:

- لأنه باهظ جدًا وثمنه يعادل عشرة جمال، ثم إنّه لا يحتمل مشقّة السّفر الطويل في الصّحراء كالبعير ولا يرعى من النباتات الخشنة كما تفعل الإبل.

ردّت عليه:

- لكنه علامة ومفخرة للفرسان!

أقطب عمّها حاجبيه:

- وما بال الجمال والماعز والخراف؟! حوافر الجياد تغوص في الرمال

لمسافة عميقة، وتُعيق علينا سفرنا وترحالنا، ثمّ ما سرّ سؤالك الغريب هذا؟!

تدخّل جَهم مستهزئًا:

- أليست فارسة وتريد لنفسها جوادًا؟!

أتمّ جملته، وضحك، فوبّخه والده على تطاوله، ثمّ ترك المائدة وانصرف بعد أن انتهى، فتبعته زوجته زفيدة، بينما حدّج جَهم عالية متمتماً:

- إن بقيتِ على عنادكِ فسأحرمكِ حياتك.

تذكر أنك حملت رواية سنابك النار حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

امتعضت منه ونهضت، فمسح جَهم دهن الجمل عن لحيته بينما يتتبّعها بعينيه الخبيثتين، ويفكّر كيف يضع حدًا لجماحها وعنادها، ثمّ لمعت في رأسه فكرة لا تمتّ للمروءة بِصِلَة، فانتظر إلى أن تنام الأعين، ثمّ تسحّب إلى مخدع أحد الصّعاليك وأمره بتتبّعِ عالية في الغد حتى تنزوي بين الجبال، وهناك يتهجّمُ عليها، ليدنّس عفّتها، فتصبح مكسورة، ذُهل الصّعلوك من طلبه واستهجنه وثار عليه:

- يا لك من فَسل عديم المروءة!! كيف يسمح لك شرفك بتدنيس عرض ابنة عمّك؟!

هزّه جَهم من تلابيبه وهدّده بعينيه الشيطانيتين:

- نفّذ دون نقاش، وسأعطيكَ مكافأة ستغنيكَ بقية حياتك!

قلّب الصّعلوك عرضه في رأسه، فلم يستوعب الأمر لِعظمه فهزّ برأسه رافضًا، عندها سحب جَهم سكينَ الصّعلوك المثبتة على خصره وقرّبه من

فم الصّعلوك:

- إذًا!! سأنفذُ الأمر بنفسي! لكني واثق أنّك لن تحبس لعابك عمّا دار بيننا، لذلك ...

وفجأة دفع الصّعلوك أرضًا حتى ارتطم رأسه وأغشيَ عليه من فوره، فكشّر جَهم عن ناجذيه الأزرقين، وجثم فوق الرجل وطعنه في صدره عدة طعنات ليضمن سكوته إلى الأبد، وأخيرًا جرّ جثّته بعيدًا إلى حيث يريد، ثمّ رجع إلى خيمته، وبدّل ثيابه وأصلح من هيأته.

عندما كان اللّيل قد انتصف ونامت جميع الأعين، عدا عين والده فاضل الذي لا يزال ساهرًا أمام خيمته، ليمارس عادته في الاختلاء بنفسه، فيتكئ على مقعده متربّعًا، بجانب ناقته النائخة التي كان يحب أن تشاركه سمره وأنسه في هدوء اللّيل، بعيداً عن ضجيج الحياة، وتطفّل البشر فيمسح على رأسها وعنقها الطويل بحنان، حتى تمده إليه واضعة رأسها في حجره، بينما يمس رأسها وعنقها بلطف وكأنه يتودد إليها، فتظلُّ على هذا الحال طوال فترة سهاده فتارة يكلمها، وتارة يحدو لها حتى تغفو مغمضة عينيها ، بينما يراقب هو النار ويدندن، مردداً الأشعار التي تستهويه لِيُسَلِّي نفسه.

راقبه جَهم عن كثب، ثمّ لقّن نفسه وبقي يتمتم بما سيقوله حتى أتقنه، عندها دنا من والده وجلس بجواره دون أن يتحدث، واكتفى بالنظر إلى النيران المشتعلة، فسأله والده عن سرّ وجومه ثمّ حاول التّخمين:

- أم أنّها عالية؟! لا تمتعض من تمنّعها، فالبنات يتمنّعن ليضرمن في أحشاء طالبيهم الجمر فيزدادوا لهفة إليهن!

سكت جَهم لوهلة ثمّ زفر بعمق:

- لم يسؤني صدودها بقدر ما ساءني سببه!!

قطّب والده حاجبيه استغرابًا، فسأله، لكنّ جَهم أظهر الارتباك والتّردّد وصدّ بوجهه بعيدًا:

- يعجز لساني عن نطقها، وأخشى أن تكذّبني عيوني!! أوتظنّ بأنني أطعن في شرفها!

زاد قلق والده فتشبّث بتلابيبه:

- تكلّم!! هل رأيت عليها ما يسوء؟!

طأطأ جهم برأسه وأخفض صوته:

- ألم تلاحظ يا أبي تأخّر عالية في العودة من الرّعي في الآونة الأخيرة، وكيف أنّ ثيابها تبدو رثّة ومبعثرة كلما رجعت؟!

شُلّ لسان الأب وتفكيره لثوانٍ حتى تمتم:

- إنّها مشقّة الرّعي! فمطاردة العنزات الصغيرة بين شقوق الجبال أمرٌ ليس بهيّن! ومؤكّد أنها تخشى عقابي، لهذا تحرص على عدم فقدان شاة واحدة.

عضعض جَهم شفتيه:

- وهنا مربط الفرس!! آه يا أبي لو تدري ما كانت تفعله بالشّياه التي ادّعت ضياعها!! صنيعها طعنني في سويداء قلبي.

تزاحمت الأفكار في رأس الأب فانتفض ووبّخ ابنه:

- كفاك تلميحًا وأفصح عمّا في ضميرك!

اضطربت أنفاس جَهم ثمّ هزّ برأسه متظاهرًا بالأسى:

- لساني لا يقوى على نطقها!! لكني مذ لاحظتُ غرابة تصرفاتها، تتبّعتُها ذات يوم، ووجدتُها تُهدي شاتها لأحد الصّعاليك وهي واقفة أمامه دون خمارها، وتضاحكه دون حياء.

جحظت عينا الأب فصفع ابنه على الفور:

- اخرس لا أهدأك الله!! كيف تفتري على ابنة عمّك؟!

تسارعت أنفاس جَهم:

- أرأيت؟! لهذا ترددت!! كنت موقنًا أنّك ستتهمني بالكذب كي أتزوجها قسرًا!! لكن الأمر ليس كما تظن! فهي ابنة عمّي وعاري!!

دار الأب بعينيه، فأكمل جهم:

- دأبتُ على مراقبتها، حتى تأكدتُ أنها تواعد ذلك الصّعلوك على سفح الجبل ليلتقيا في الحجيرة و...

أزبد والده وصاح به:

- كفاك!!

تابع جَهم:

- واجهتُها.. وحين أدركتْ أني كشفتها صارت تهذي بأمور الفروسية وغيره لتواري سوأتها.

تصارعت الأفكار في رأس الأب، وصار يشبك الأمور ببعضها، فضرب برفق رأس ناقته التي أدارت رقبتها بعيدًا، وكاد أن يذهب إلى مخدع عالية، بيد أنّ جهم أمسك بركبته مستوقفًا:

- تجلّد حتى تمسكها بجرمها المشهود وتتثبت، فلنتحيّن خروجها في الغد ومسراها بأمّ عينيك.

"مضى اللّيل ونفس فاضل تتقلقل بعد أن قُضّ مضجعه"

وعند الفجر استيقظت عالية وأعدّت نفسها للرّعي وخرجت، فانصرف جَهم إلى أعيان القبيلة وقد كانوا عشرة رجال من الوجهاء والشرفاء، فكرّر افتراءه على ابنة عمّه عندهم غير آبه بعرضه، فذهبوا إلى والده ووبّخوه، ثم أخبروه بأنهم سيرافقونه في تَتَبُّعِه لعالية ليغسلوا عارهم بأنفسهم إن تثبّتوا من فُجْرِها، فقد أبلغهم جَهم أنها تحضر خليلها الصّعلوك عند العصر وتعمّد جَهم تحديد الوقت لأنه يعرف تمامًا متى تُعيد عالية أسلحتها إلى الحجيرة.

انتظر الجميع على أحر من الجمر مرور الوقت مع حركة الشمس منذ إشراقة الضحى وحتى وقت توسط الشمس في كبد السماء أمام خيمة فاضل، منهم كبار وأعيان القبيلة الذين جلسوا يتحاورون ويتجادلون، وأغلبهم غير مصدق برواية جهم ويريدون التثبت، بينما تبدو جماعة من شباب القبيلة واقفين، يتناقشون، تعلو أصواتهم تارة ويهدأون أخرى، ومنهم من يتوعد بأنه سيكون أول من يطعنها بسيفه لينال شرف المبادرة بحفظ كرامة القبيلة، ومن يقول بل نرجمها هي وصعلوكها ونلقي بهما من فوق الجبل ليكونا عبرة.

"مرّ الوقت ثقيلاً حتى جاء وقت العصر"

انطلقوا خلف جهم وأبيه الذي حمل بندقيته ليغسل عاره بيديه، وبالفعل، وصلوا في الوقت الذي نزعت فيه عالية خمارها قرب بوابة الحجيرة لِتُجَفِّف عرقها من التّمرين المجهد، وحين فتحت باب الحجيرة لتُرجِعَ أسلحتها، فوجئت بِجُثّة الصّعلوك المطعون في صدره فيها فارتعدت! حيث

إنها لم تر جثته في الصّباح حين أخذت أسلحتها فمن الذي وضعها هنا الآن!!

بالكاد استغرقت في التفكير حتى فزِعتْ لصوت ابن عمّها جهم يصيح من بعيد:

- ها هما!! لقد وجدتهما!!

ثمّ نزع خنجره من حزام خصره، وسبق الجميع متسلّقًاالصخور حيث الحجيرة، فتجمّد الدّم في عروق عالية للحظات قبل أن تستفيق على صراخ الرّجال وهم يشيرون بأصابعهم نحوها:

- انظروا!! ها هي ذي عديمة الشرف!! وهذه حجرتها التي تمارس فيها!!

اصطكّت ركبتاها لافترائهم، ثمّ جزعت لرؤية جَهْم قد أصبح أمامها مباشرة رافعًا خنجره عاليًا فغطّت رأسها بذراعيها ذعرًا، بينما همس لها بمكر:

- لن يطلُع صباح الغد عليكِ!!

ثمّ أقرب خنجره في غمده ودخل الحجيرة حيث جثة الصُعلوك فلطّخ يديه بدمه، فارتبكت عالية لصنيعه ووضعت يدها على فمها مستغربة، ثمّ لوّحت بها لتنفي أكاذيبه، لكنّها فوجئت به يخرج من الحجرة مناديًا بالرجال:

- لقد وجدته وقتلته!! نلتُ منه! وكُشِفَتْ الفاسقة!!

استهجنت بهتانه وكادت أن تصيح لتنكر ادّعاءه، لكنّ عمّها صوّب بندقيته نحوها ورماها من بعيد، فجزعت وولّت هارية تتقافز بين الصُخور برشاقة، بينما أرعَب ضجيج الرّصاص الماشية التي تبعثرت هنا وهناك وعلا نباح الكلب فزاد التوتر ثمّ تكاثفت الشحب القاتمة، وبدأ صوت الرعد يجلجل

في جنبات الفضاء وأخذ البرق يومض في السماء على استحياء، في حين توالت الرّصاصات الغادرة، لا تكاد تخطئ هدفها الذي أصاب عالية في خصرها، فهوت على الأرض بجراحها، لكنّ حلاوة الحياة تملكتها فسحبت نفسها واختبأت بين الصخور، مستأنسة بهزيم الرّعد، لعلهم يفقدون الأمل في العثور عليها فينصرفوا عن المكان، بينما مرّ الجميع من جانبها ليبحثوا عنها دون أن يروها، مقسمين أنهم لن يرجعوا إلا بجثتها.

"غربت الشّمس وحلّ الظلام"

تعاظم الموقف وبدأ هطول المطر على أعالي الجبال، وتتبع بعض الرجال الماشية ليجمعوها ويعيدوها، بينما يتفرّغ البقية بمن فيهم العم فاضل الثائر وابنه الخبيث للبحث عن عالية التي ما عادت تحتمل آلامها، فبدأت تَئِنُّ حتى اهتدى جَهم إلى مكانها وجذبها من ثيابها، وألقى بها أمام الأعيان وهي في حال يُرثى لها، بينما صاح أحد الرجال بها:

- الهاربة قصاصها القتل!! لو كنتِ عفيفة لما هربت؟!!

ردّت عليهم عالية بأنين:

- هربتُ بعد أن سلّطتم عليّ رصاصكم الغاشم!! فخفتُ أن أموت مظلومة قبل أن أدافع عن نفسي!

"أيّ حال عصيب أصبحَتْ فيه في طَرفة عين!!"

إنّها عالقة بجرحها في قمّة الجبل الصّخري، ومحاصرة من قبل الأعيان، وحياتها تحت رحمة البندقية التي يصوبها عمها نحو رأسها بتردّد بينما يستحثّه ابنه جهم الواقف بجانبه:

- اقتلها!! اقتل من دنّست شرفنا، فالعار لا يؤخذ إلا بالدّم!!

احتبست الكلمات في جوفها، ولم يعد معها من ينصفها، فجوادها الثائر سقط صريعًا ينخر لافظًا أنفاسه الأخيرة، لم تصدّق عالية أبدًا انصياع عمّها لادّعاءات ابنها جَهم الكاذبة، دون أن يتثبت منها، وإصراره على هدر دمها بدلاً من تقصّي الحقيقة!!

دنا منها عمها وصوّب بندقيته نحو جبهتها، فنظرت إلى عينيه والدّمع يتجمد في مقلتيها، وأدركت أنه لا منجى لها، لكنّ أجلّ ما غصّص فؤادها هو سمعتها!! فلم تَعُد تبالِ بالحياة!! لكن ماذا عن سمعتها وشرفها!! سينعتونها بأبشع الأوصاف، وقد كان أملها أن تُلقّب بالفارسة الشجاعة!! أهذا ذنب تُحاسب عليه؟!

أبَت أن تُغمِض عينيها، فرفعت ناظريها نحو النّجوم حيث ترى نفسها دائمًا، وقد بلّل وجهها وشعرها وجسدها ماء المطر الذي وتناهي إلى سمعها خرير الماء الذي لم ينقطع، وتملكها الوجل الشديد، وتسارعت أنفاسها وضربات قلبها، وأصبحت تتحيّن تلك الرّصاصة، فضغط عمها على الزناد ليقضي عليها، لكن من سوء حظّه أنّ الرّصاصة لم تخرج، فقد نفذ الخزّان بعد أن أفرغه على الجواد الثائر.

ارتبك العمّ، وعزّت عليه كرامته؛ فرمى ببندقيته واستلّ سيفه الطويل، كأنما لا يريد التمهل أو الاتعاظ أو التراجع، غابت حواس عالية، واستسلمت له تمامًا.

"في المقابل"

سمع الجميع صوت صفير متكرّر من بعيد، تردّد صداه حتى وصلهم، كأنه صفير نداء، على إثره تحرّكت أذنا الجواد المصروع استجابة للصّفير، ثم انتفض جسده، وارتعدت أطرافه في منظر مهيب أمامهم إلى أن وقف على حوافره والدّم لا يزال يقطر من جسده بينما تلتئم جروحه، فصهل مجددًا

وضرب الأرض بحوافره بكامل قوتها، حتى قدحت وخرجت شرارة عالية قوية غشّت أبصار الجميع لوهلة، فأغمضوا أعينهم، وحين فتحوها لم يجدوا أثرًا لا للجواد ولا لعالية، فذهلوا وصاروا يلتفتون إلى بعضهم البعض، فَجُنّ جنون جَهم الذي انتبه إلى غبار بعيد، فتبعه وإذا به يرى الجواد يركض وعالية ملقاة فوق ظهره، فصاح:

- هربت!! لقد هربت!!

انعقدت ألسنة الرجال، فكيف عاد الجواد إلى الحياة؟! ومن أين امتلك كل هذه القوة، وكيف أخذ عالية من أمامهم في طرفة عين؟!

كادوا أن يُسلِموا الأمر للخوارق، لكنّ جَهم بقي يمشي على حافة الجبل يستحثهم:

- هيا!! لنلحق بها!!

رمقه والده بنظرة الشك، ثم انتبه إلى أنّ خنجره لا يزال في غمده فاستغرب:

- ألم تستل خنجرك لتطعن به الصّعلوك؟! فمتى أقربته؟! ونحن وجدنا السكين لا يزال مغروزاً في صدر جثته!!

ثم استوعب ما قاله فحمَج عينيه مذهولًا:

- أنت لم تطعنه في حينها، لأنه كان مطعونًا قبل وقت طويل جدًا!! أو ربما تكون عالية من أجهزت عليه دفاعًا عن نفسها!!

ارتبك جهم لغفلته عن التّفاصيل، ولم يدرِ بِمَ يجيب والده، حتى جاء أحد الرجال الذي كان منهمكًا في لملمة القطيع المبعثر وإرجاعه إلى حظيرة القافلة، وبيده أسلحة عالية -سيفها ورمحها وسهامها ونبالها- فقال:

- انظروا!! إنها أسلحة!! لم تكن عالية مدنّسة!! بل كانت تتدرب على الفروسية بمفردها هنا!! وتلك الحجيرة الضّيقة مكتظة بأسلحتها!! أما الجثة فكانت مقتولة سابقًا، فقد كانت باردة كالثلج خالية من الدماء، والمكان نظيف لا نرى إلا الآثار المتبقية على ملابس الصعلوك، وتصلّب الجثة يدلّ على أنه مضى أكثر من نصف يوم على قتله، كما وجدتُ خيط الدّم على طول الصخور، وكأنه تمّ جرّها من مكان بعيد!

اتّضحت معالم الصورة كاملة أمام فاضل، فنظر إلى ابنه باحتقار:

- ظهرت عِفّة عالية البريئة، وكنتُ سأهدر دمها الطاهر بسبب افترائك يا ملعون!!

جُنّ جنون جهم وصاح بهَوَس:

- بل هي دنيئة!! وإن لم تكن لي فلن تكون لغيري!!

أثناء ثورته وإزبائه واقترابه من أبيه وهو يلقي بأسلحة عالية في كل مكان بتشنج وهذيان، لم ينتبه إلى الوعل المذعور من صوت الرعد وهطول المطر وضوء البرق الذي ارتبك في جريه واندفع منزلقاً في طين الجبل ناشباً قرونه الطويلة الملتفة والحادة في بطن جهم حتى اخترقت أحشاءه، ثم رفعته بقرونها عاليًا فنفضته على حافة الجبل فخرّ صريعًا، من فوق قمته لافظاً أنفاسه الأخيرة، بينما تابع الوعل ركضه هارباً من البرق والرعد تاركًا إياهم في ذهول.

كاد فاضل أن يلحق بابنه لينقذه، إلا أنه سقط في شقٍّ ضيق وعميق، وكأنه قبر بين الصخور بعد هنيهة امتلأ بماء المطر الذي غمر الجثة، فاكتفى بالإصغاء قسرًا إلى غرغرة روح ابنه الشقيمة وهي تصارع، حتى أسلم الرّوح إلى بارئها.

جثا فاضل على ركبتيه وغطّى وجهه مجهشًا:

- يا الله!! حصحص الحق، وظهرت براءة عالية، ونال ابني ما كان يستحقه، فلا عيش لأسود كبد مثله!

ربت عليه الرّجال وواسوه وأعانوه على الوقوف، بينما أخذوا أسلحة عالية، وعادوا إلى القبيلة يجرون أذيال الخيبة جراء بهتانهم، فاستقبلهم الناس وسألوهم عن مصير عالية، وهل أخذوا بثأرهم أم لا! ظلّ الأعيان واقفين مكانهم، وأعينهم منصبّة على فاضل المَخزي، إلى أن جاءته زوجته زُفيدة تسأله عن عالية وعن ابنها جَهم، فاكتفى بالسّكوت، عندها أقطبت جبينها مستغربة عرق زوجها وشحوب لونه فسألته:

- ما بك؟ أين هما؟

سكت فاضل وذرف دموعه فهزّته زوجته:

- أين جَهم؟! أين ابني؟ تكلم!!

انعقد لسانه ثم نظر إلى زوجته:

- لم نُحسن تربيته، تركناه يلهو ويمرح في صغره، لم يساعدنا يومًا في رعاية الإبل والغنم، لم يمسك سلاحًا أو يبحث عن طعام، لم نوبّخه عندما كذب علينا، فتطاول، كنا نراه لا يخطئ، فنال ما يستحقه، وعوقبنا بفقدانه.

صُدِمت الأم، فغطّت فمها بيدها، وترقرقت عيناها، فأشفقت عليها النسوة والتففنَ حولها لمواساتها لكنها أزاحتهن عنها مُعلّقة بعد أن لملمت شتاتها بمشقّة:

- يا ويلي!! فراقه أشعل جمرة في قلبي!! إنه وحيدي، صغيري الذي تعهدته منذ نعومة أظفاره، يوما بيوم، وساعة بساعة، ما الذي كان علينا

فعله حتى لا يصير هكذا؟! لابد أننا قصرنا في تربيته ...

ثم أجهشت في البكاء وهي تنظر إلى زوجها الذي اقترب منها، واحتواها بين ذراعيه، وهو يذرف دموعه، ثم نظر إليها قائلاً:

- لا تعذّبي نفسك، فلم نقصر يوماً في تربيته وتوجيهه، لكنهو الذي كان ولداً عاقاً، لم يستجب يوماً لنصح أو وصية، وكثيراً ما عانينا من عناده وعصيانه وجحوده، ولكنا كنا نرجو أن يتوب لرشده يوما ما، فلا تؤنبي نفسك، وليرحمه الله، وليصفح عنا لظننا السوء في عالية الشريفة التي كدنا نقتلها جوراً.

زمّت شفتيها متحسرة:

- عالية .. نعم، عالية شريفة لا شك، فقد عاشت معنا، ونعرفها، ولا تستحق افتراءه عليها، وكل ما أرجوه أن أقابلها فتصفح عني.

تصاعدت الهمهمات، وانفضّ الناس، فاصطحب فاضلزوجته إلى خيمتهما لينفردا بحزنهما، بينما تداول الناس خبر الجواد الأسود ذي الشّرار المتقد، وأجزموا أنه جنّ عاشق، أخذ ابنتهم إلى عالمه لينقذها من بطشهم.

"لكن.. ما الذي حدث لعالية حقّا؟!!"

"ومن كان صاحب الصّفير الذي أعاد الجواد إلى الحياة بعد موته بعدما خرّ صريعاً ؟!!"

"بالقرب من مضارب قبيلة خَطّار"

حطّ عند السّهل الأخضر موكب مكوّن من عشرة رجال يعتلون خيولاً شهباء، وخمسة نسوة كانوا في ثلاثة رحال، أحدها لإمرأة في الأربعين، ترتدي أجمل الثياب، ويزين رأسها تاج من الجوهر، ورحلين آخرين لسائر

النسوة، وعلى رأسهم رجل في نهاية الأربعين يستقل جواده الأبيض ، ويبدو وجهه أبيضَ مشوباً بالحمرة، عليه الجدة والصرامة، وعلى رأسه تاج من الذهب والجوهر يلبس ثوباً بنياً فاتح اللون، مطرزاً ومزخرفاً على صدره وأكمامه، يجره على الأرض من فرط طوله، وقد وضع عليه بردة ترابية فاخرة ذات حواف ذهبية، وتبدو من هيئته ومن معه أنهم ليسوا من أهل الصحراء، بل إنهم يبدون أكثر ترفاً ورخاء وتمدناً، من خلال أسرجة جيادهم الوثيرة المكتنزة بالقطن والمكسوة بالقطيفة الخضراء ومدعمة من حوافها بإطار نحاسي، مزخرف بماء الذهب ، وخيمهم الصلبة المكسوة من الجلد المشيدة بإحكام، التي ضربوها ووتدوها عند ذلك السهل، مع وضع راياتهم فوقها، وافترشوها بِبُسُط وفُرُش وثيرة.

بدا القلق على ذلك الرجل وحوله أعوانه، وهو لا يستقر على حال، عاقداً يديه خلف ظهره، وفي حركة دائبة، يروح ويغدو دون أن يهدأ، حتى جاءته زوجته (هيلا)، تلك المرأة المتوجة ودنت منه:

- على هونِك أيها الملك (هَوْزان)، فسنعثر على الأمير (شَرار) لا محالة!

أبدى لها الملك قلقه:

- لقد صفّرْتُ له مرارًا يا مليكتي، ولم يرجع!! لم أهنأ بنوم ليلة واحدة منذ سنة، تحديدًا منذ أن مسخته تلك الساحرة اللعينة، وجعلته يضل طريقه عنا!!

حزنت الملكة (هِيلا) مستحضرة:

- وهل ما فعله (شَرار) كان يسيرًا؟! لم نترك فتاة في المدينة إلا وعرضناها عليه ليتزوجها، لكنه كان يرفضهن جميعًا بحجّة أنّ قلبه لم يمِل إلى أيٍّ منهن، حتى وقع على ابنة الساحرة (غُثوة) التي أحالته إلى جواد مكتوب

عليه التيه والشرود، ولن يعود إلى هيأته حتى يعثر على حُبِّهِ الذي يدّعيه.

ضمّ الأب شفتيه:

- لكنّ ابني لم يكن يتلاعب بمشاعر الفتيات، بل كان صادقًا في طلبه.

أومأت الأم برأسها موافقة، وأغمضت عينيها لحظة معبرة عن حسرتها، ثم نظرت إليه مشيرة بيدها باستغراب:

- والساحرة كانت صادقة في لعنتها!! منذ أن مُسخ حبسناه في الاصطبل، إلى أن فرّ منا قبل بضعة أشهر، ومن ساعتها ونحن نفتش عنه في كل مكان حتى اهتدينا إلى مروره بهذه البقعة بعد أن تتبعنا أثره جيدًا!! وقلبي يخبرني بأنّ معاناتنا ستنتهي قريبًا.

استمرا في الحديث والانتظار إلى أن انتصف اللّيل، وسمع الموكب أخيرًا وقع سنابك جوادٍ يصهلُ من بعيد، فخرجوا وإذا هو ذلك الجواد الأسود الجامح يظهر أمامهم أخيرًا بعد فراق دام لأشهر!! فأشرق الأبوان، وتهلّلت أساريرهما، ورقص قلباهما فرحاً لرؤيته يعود إليهم، ولكن شدّ انتباههم فتاة مستلقية على ظهره بدون حراك، فأسرعوا إليه، ولما تفحصوها وجدوا جراحاً بالغة في خصرها، ولا تزال تنزف، فأمرت الأم الجواري بمعاونتها في تطبيب الجريحة، بينما بقي الأب يربت على الجواد الثائر القلق ويسأله:

- شَرار!! شَرار!! حدثني بما جرى؟ ومن هذه الفتاة؟!

وجد الملك (هَوْزَان) صعوبة كبيرة في التحاور مع ابنه الذي كان يسمع كلامه ويعيه جيدًا، لكنه يعجز عن الإفصاح عما في نفسه كالبشر بل يكتفي بالصّهيل والإيماء برأسه، فقد عُقِد لسانه بعد أن مُسخَ حصانًا، فسأله والده يائسًا:

- هل تعرف أهل هذه الفتاة؟

أومأ الجواد برأسه وصهل، فارتاحت نفس الأب وحدثه:

- إذاً.. فسنعيدها إلى أهلها حالما تبرأ من جراحها.

بقيت عالية في عناية الموكب ليومين إلى أن استعادت وعيها وصحتها، واستغربت حال القوم، فارتاحت إليها الملكة وأسرّت إليها بقصتهم، كما أبلغتها بأنهم حُكّام (مملكة كوهار)، حينئذٍ نظرت عالية إلى الجواد الأسود في ذهول متسائلة:

- إذاً فهو إنسان؟! أيّ ساحرة خبيثة مسخته؟!

أبلمت الأم، ثم نهضت وانفردت بزوجها لتناقشه، وختمت حديثها:

- لا أظنها الفتاة المنشودة، وإلا لعاد ابني إلى هيأته عندما التقاها إن كانت -فعلاً- حبه المنشود.

فمال الملك إليها برأسه مبتسماً ابتسامة خفيفة هامساً:

- أيّاً يكن، فهي لا تزال أمانة في أعناقنا، وعلينا إرجاعها إلى أهلها.

"مرّت الأيام"

حتى تماثلت عالية تماماً للشفاء، وحان موعد رجوعها إلى أهلها، فحاولت الملكة منعها ناصحة:

- كيف ترجعين للموت بقدميك؟!

انهمكت عالية في لملمة حاجياتها في صرة من القماش بجدية واهتمام:

- الموت أشرف من هروبي، ثمّ إنّ لي عندكِ طلب فلا ترديني.

أنصتت إليها الملكة (هيلا) باهتمام، فأكملت عالية:

- أريد كفنًا ومِسكًا، ولا تناقشيني أكثر أرجوكِ.

أدركت الملكة عدم جدوى من إقناعها بالبقاء، فلبّت طلبها، وأعطتها لفافة كبيرة من قماش فخم شديد البياض، كما وضعت لها قنينة كبيرة من المسك البيض وأخرى من المسك الأسود، ثمّ سار الموكب مع عالية التي صعدت هودجًا أُعِدّ خصيصًا لها وهي تضع الكفن على كتفيها، بينما ترأس الجواد (شَرار) الموكب ليعيدهم إلى قبيلة خَطّان، وكلّه حزن على مصير فتاته التي أحبها من صميم قلبه.

"في المقابل"

وبينما كان فاضل ساهمًا في مجلسه، جاءه أحد الأعيان على عجلة:

- ذلك الجواد الأسود!! لقد ظهر مجددًا وخلفه موكب لا يبدو أهله بأنهم من البادية!!

نهض فاضل من مجلسه وتبع الرجل، فأصبحوا على أطراف القبيلة مراقبين ذلك الموكب القادم إليهم إلى أن وصلوا، فسألهم فاضل باستغراب عن هويتهم، عندها أناخت عالية الجمل ونزلت من هودجها، فاختلج فؤاده من فرط الدّهشة والسّعادة، لكنّه لاحظ بأنّها تتوشّح بوشاح أبيض، فدنا منها وحين أدرك بأنّه كفن علّق مذهولاً:

- عالية!!

ما أن أتمّ كلامه حتى انتفض الجواد الأسود ووقف حائلاًبينهما، وهو يصهل باستمرار وبقوة تهز الفضاء من حوله، ونظرات الغضب تتّقِد من عينيه تجاه العم الظالم، فمسحت عالية على ناصيته برفق:

- لا بأس يا شَران اهدأ، فلا أحد يفرّ من قدره!

عُقِدَ لسان فاضل، بينما مدّت له عالية كفنها قائلة:

- لم أقصد الهرب ليلتها، لكن وإن كنت مصرًا على الاقتصاص مني فكفّنّي وادفني، وبحق صلة الدم التي بيننا، أكرمني في موتي و...

قاطعها عمها:

- كفى يا بنيتي!! لقد ظهرت براءتك في حينها، ونال جَهم ما يستحقه!!

لم تستطع عالية أن تصف مشاعرها المضطربة في تلك اللحظة التي سمعت فيها خبر مصرع جهم، فانقبض قلبها وارتبك بين جوانحها منهول المفاجأة ثم عرتها رعدة لحظية في جسدها خلفت راحة وطمأنينة في صدرها، وما لبثت أن رفعت وجهها إلى السماء وأخذت نفساً عميقاً، وقالت في نفسها:

- حمداً لله!

ثم أشرق وجهها:

- أحقا ما تقول يا عماه؟! وكيف؟

هزّ فاضل رأسه، وهو يومئ بعينين شفيقتين:

- نعم، هذه هي الحقيقة، وشرحها يطول.

حلّ صمت رهيب، وشعرت عالية بأنها امتلكت الدنيا بين يديها بعد أن كادت تتفلّت منها، وتقدم الملك (هَوزّان) وعرّف بنفسه للعم، فاستقبلَ العم ضيوفه جميعًا في خيمته، بينما تولّت زوجته رفيدة ضيافة الملكة (هيلا) وعالية في مجلسها، أما الجواد الأسود فكان قلقاً، يتنقّل باضطراب بين مجلس النساء ومجلس الرجال ونظره لا يتحول عن فاضل وعن رجال

القبيلة حماية لعالية.

"في المجلس"

قصّ الملك (هَوْزَان) على الحاضرين قصة ابنه (شرار) وكيف أنّهُ مُسخَ إلى حصان، ثم أخبرهم بما سردته عالية لهم من لقائها الأول بالجواد قبل أن يعيدها، أثناء سرده، همس أحدهم للعم بسوء نية:

- يقولون بأنّ ذلك الجواد ابنهم!! ربما يكون هذا خليلها الذي قصده جَهم!! وجاء ليواري فضيحته؟!

انتفض عليه فاضل ووبّخه:

- صهٍ، قطع الله لسانك!! ألم ترَ عواقب افتراءات جَهم؟ ثم ما أدرى عالية بأنّ هذا الجواد آدمياً؟ هل تراه يتكلم؟!

سمع الملك همهمتهما فأوضح:

- حين جاءتنا عالية جريحة، فاقدة لوعيها بين الحياة والموت، لم نعرفها ولم نعرف ما وراءها، لكن من يرى وجهها يدرك أنّها فتاة ليست عادية، فهي عالية الهمة، قوية شجاعة، لا تهابُ شيئًا، لم تحظَ بما تستحقه من تقدير.

أمسك فاضل برأسه:

- وهي كذلك!! فأنا كنت بئس العم لها!! لم أستوعب أنها أبيّة شريفة، فضّلت الموت على نذالة ابني، وصَمَدَت على صون نفسها وتقويم قوتها.

أعجب الملك (هَوْزَان) بها:

- وأنا أشهد بأنها من ذوات الحَصَانَة! فهي عَفِيفَة شَدِيدَة الحَيَاء.

أثناء حديثهم، ظلّ الأعيان غير مصدقين لسيرة الجواد شرَار لكن لم يكن

بيد الملك أي دليل لإثبات كلامه إلا ما حكاه لهم، إلى أن حان وقت الرحيل، فنهض الجميع وفي مقدمتهم فاضل ليكونوا في وداع الملك (هَوْزَان) وموكبه، فشكر الملك على حسن صنيعهم مع ابنة أخيه، ودعا لهم بالتوفيق في إيجاد حل لمعضلة ابنهم.

أثناء حديثهم صهل (شَرار) وظلّ في هياج، يضرب الأرض بحوافره رافضًا العودة مع الموكب؛ وكأنّ فؤاده تعلّق بعالية ولا يريد فراقها، فهمت عالية حالته، فدنت منه، ووقفت إزاءه ومسحت على وجهه وهي تهمس إليه بينما تنظر إلى عينيه في حنان:

- لن أنسى صنيعك معي ما حييت، لكن عليك العودة مع موكبكم، فحتى إن صدقت حكايتك، فلا أستطيع الاقتران بك وأنت على هذه الصورة!

هزّ الجواد رأسه وهو ينخر بصوت خفيض كأنما يتكلم، فلم تفهم عالية كلامه، لكنها اكتفت بالمسح على ناصيته حتى ترقرق الدمع من عينيه فبلّل الدمع كفها، فرقّ قلبها لحاله، عندها اقتربت من رأسه واحتضنتها برفق، ودعت له:

- أرجو أن تعود لصورتك الأولى، وتسعد بحياتك.

تمكّن (شَرار) من سماع ضربات قلبها الصادقة، فاستكان، أما هي فلم تحتمل، فأجهشت بالبكاء حتى خضّلت دموعها ناصيته، وظلا معاً على هذه الحال برهة من الوقت حتى نسيا من حولهما، فإذا بالحاضرين يذهلون، غير مصدقين ما يرونه بأعينهم، تحولت السماء من حولهم وتسارعت حركة السحب وتكاثرت، وهبت عاصفة من الهواء البارد، أحدثت دوامة فوق رؤوسهم، ما لبثت أن اتجهت ناحية عالية وجوادها فظلّت فوقهما، حتى بدأت زخّات خفيفة من المطر تتساقط، وبدا صوت الرعد ينذر بالمزيد، وهنا بدت للعيان هالة ذهبية حول الجواد، ضوؤها ساطع يكاد يخطف

أبصارهم، فأخذ الناس يتوارون من هذا الضياء بكفوفهم وسواعدهم، ولم ينتبه له كل من عالية و(شَرار)اللذين كانا في عزلة عن الوجود، إلى أن استشعرت بأنّ حجم رأس الجواد تغير بين ذراعيها وصار أصغر ففتحت عينيها فزعة، وهي تجد بين ذراعيها هامة شابٌ ذي شعر طويل أسود، يكاد يصل إلى كتفيه، وجهه بين البياض والحمرة، لكنه شاحب قليلاً، تبدو عليه علامات الإرهاق، نحيف القوام سامق، يبكي، فاحمر وجهها خجلاً وذهولاً، ودون أن تشعر وجدت نفسها تدفعه بعيدًا، حتى سقط أرضاً، وانتبه لنفسه، فبدت علامات الذهول في وجهه وهو يتفحص يديه وجسمه، ثم أخذ يجيل نظره فيمن حوله، في ذهول وحبور، وسط دهشة وحيرة الجميع، بمن فيهم الملك والملكة المشدوهان، اللّذان صاحا ودموع الفرح تملأ عيونهما:

- شَرار!! ولدي!! ولدي شَرار عاد لطبيعته أيها الناس!!، عاد آدمياً!

رمش (شَرار) بعينيه مرارًا وشقّ عليه النهوض لاعتياده على السير بأربعة قوائم لفترة طويلة، بينما انكبّ والداه عليه بين بكاء وصراخ يغمرانه بالأحضان والقبلات، والناس من حولهم صامتين ساكنين، وكأنّ على رؤوسهم الطين يضربون كفاً بكف، ويهللون ويكبرون، وقد غلبتهم دموعهم لا يكادون يصدقون، في حين شدهت عالية، وهي تحاول أن تعي ما يحدث أمامها، فلربما هو حلم!!

استمرّوا على هذه الحال لبعض الوقت، فاستضاف فاضل ضيوفه مجددًا في مجلسه، وبعد يومين من تعافي الأمير وارتدائه لثياب مضيفيه من البدو، أقسم بألا يغادر إلا بعد أن يقترن بعالية ويأخذها معه إلى دياره؛ فهي الفتاة التي رفّ لها قلبه بكامل قناعته... وحظي طلبه بالقبول.

"وفي يوم الزفاف"

وبينما كانت العمة زُفيدة تُحَضِّر عالية، شردت بفكرها حزنًا، فسألتها عالية عن سر وجومها، عندها أجابتها العمة بصوت شاحب مبحوح مهمهمة:

- سامحيني يا ابنتي، فقد كنتُ أعرف صنائع ابني معك، ومع ذلك لم أمنعه أو أردعه، فعاقبني الله به، فاصفحي عني.

استغربت عالية، فتابعت زُفيدة:

- حتى أني سمعتك ذلك اليوم، حين اعترضكِ عند الحظيرة وقمتِ بصدّهِ بثقة قائلة له "لو كنت آخر رجل في الدنيا لما تزوجتك، فأنا (عالية) غالية لا أستحق سوى أمير عال المقام!".

استمرت زُفيدة بالبكاء بينما ظلّت عالية ترسم على وجهها علامات الدهشة وعقد لسانها وهي تستمع إلى عمتها:

- أحسنتِ في تقدير نفسك فنلتِ ما كنت تحلمين به يا عالية، أمير شريف، عزيز وسيكون ملكاً على (كوهار) بعد أبيه!

أطرقت عالية قليلاً، ثم مدّت يدها إلى عمتها، وربتت على كتفها بحنان ووجها مفعم بالأسى والشّفقة، ثم ابتسمت ابتسامة الرضا:

- لا عليك يا عمتي، هوّني على نفسك.

تابعت زُفيدة:

- منذ أن أخبرتنا بنيتك في الفروسية، لاحظتُ عليكِ ثقتك وراقبتك حتى رأيتكِ تتفقين مع الحدّاد، فاستفردتُ به، واستنطقته بينما كان يشحذ لي سكاكيني، وعلمتُ منه بأنكِ كنتِ تقايضين السلاح منه بأغنامنا، فسكتُّ عنكِ، ولهذا كنت أتوسل إلى زوجي أن يخفف عنكِ العقاب.

نظرت إليها عالية باندهاش، فتابعت زُفيدة موضحة:

- كنت أتحيَّن الوقت المناسب لأفاتحكِ، لكني لم أظن يومًا أنَّ ابني سيفتري عليك!

تمالكت زُفيدة نفسها، ثم مسحت على ظهر عالية ونصحتها:

- هدفكِ يا بنيتي نبيل، ونفسك نقية ونيتك حسنة، ولكن لا تفرطي في حسن الظنّ، فالحدّاد كتم سرك اليوم، وغيره ممّن لا عهد لهم ولا ذمة لن يفعل ذلك غداً، بل سيطمع فيكِ، ويدبّر لكِ بليل حتى ينال منك، فالطريق إلى جهنم مفترش بالنوايا الحسنة، وقد عانيتِ من مرارة ذلك بنفسك.

أطرقت عالية لوهلة، ثم أظهرت اقتناعها، فأمسكت بيد عمتها، تنظر في عينيها بثبات:

- عمتي، قد يكون في كلامك بعض الصواب، لكن اعلمي أنه حتى لو اعتبرك البعض آثمة وشيطانة، واعتبرك آخرون ملَكاً طاهراً كماء البَرَد، فالمهم هو حقيقتك، وجوهر نفسك، ويقينك، وإيمانك، فهؤلاء هم منبع قوتك وسلاحك في المواجهة.

ابتسمت لها زُفيدة، بينما قطعت كلامهما إحدى الفتيات منادية:

- هيا أيتها الأميرة، هيا فزوجكِ الأمير ينتظرك ليتحرك برفقة أهله.

ودّعت عالية عمّتها، ثم خرجت إلى موكب العرس وهي في أبهى حُلة وهي تلتفت وراءها بنظرها إلى عمتها وخيمتها الصغيرة، مع أصوات الغناء والزغاريد...

تمّت

نبذة عن المؤلفة

المهندسة سارة أحمد كاتبة إماراتية، بدأت مسيرتها في الكتابة من خلال كتابها الأول المتخصص في تنمية الذات (البطل والبطالة) 2018، ثمّ دخلت عالم الفانتازيا العربية من خلال سلسلة (سلام) المتلخصة في (بعد السهوك 2019، قناع الشيطان 2020، وسيد البارقة 2021).

بعدها دخلت عالم القصص المصورة المطولة webtoon من خلال

(ملحمة قلب التوقار) المتوفرة بالعربية والإنجليزية

The Heart of Touqar" "

ثمّ تحديث سلسلة سلام لتظهر بحُلّتها الجديدة (ملحمة نزيف الرمال 2024)

شغفها في الفانتازيا العربية، أطلق العنان لخيالها بنسج قصص مبدعة.


غلاف: وحيد محمد
سنابك
النار
عندما تتقطَّع السبل بالأنقياء،
ولا يبقى لهم من البشر ناصر ومعين، فمن لهن؟!
إبهار
للنشر و التوزيع
9 789778 789010